

دور الفقهاء الأدباء بالمغرب الأقصى في نهضة اللغة والأدب: المختار السوسي نموذجاً

أ.د. عبد الرحيم الحمدادي

أستاذ باحث، الثانوية التأهيلية الإمام الغزالي، المديرية الإقليمية: مكناس، المغرب.

Email: elhamdadiabdo@hotmail.com

قبول البحث: 22/08/2021

مراجعة البحث: 19/08/2021

استلام البحث: 28/06/2021

ملخص الدراسة:

يتناول هذا المقال مساهمة الفقهاء والأدباء بالمغرب الأقصى في نهضة اللغة والأدب من بينهم العلامة محمد المختار السوسي خصوصاً في فترة الاستعمار الفرنسي، حيث يعد من أهم المنظرين للاستقلال المغربي من خلال الكفاح في سبيل التحرر، لذلك عمل جاهداً من أجل الرفع من قيمة الأدب واللغة باعتبارهما من بين السبل لتحرير الشعب المغربي من الاستعمار الغاشم.

الكلمات المفتاحية: المختار السوسي، الأدب، اللغة، الفقهاء، الأدباء.

The Role of Literary Jurists in the Far Maghreb in the Renaissance of Language and Literature: Al-Mukhtar Soussi as a Model

Prof. Elhamdadi Abderrahim

Research Professor, Imam El-Ghazali Qualifying Secondary School,
Regional Directorate, Meknes, Morocco. Email: elhamdadiabdo@hotmail.com

Abstract:

This article deals with the contribution of jurists and writers in the Far Maghreb to the renaissance of language and literature, including the scholar Muhammad Al-Mukhtar Al-Soussi, especially during the period of French colonialism. Among the ways to liberate the Moroccan people from brutal colonialism.

Keyword: Al-Mukhtar Al-Susi, literature, language, jurists, writers.

المقدمة

تعد شخصية المختار السوسي من أهم الشخصيات التي ساهمت في بناء وإثراء النهضة الثقافية في المغرب إبان فترة الاستعمار الفرنسي، كما يعد من أهم المؤسسين والمنظرين للاستقلال المغربي بكفاحه الوطني وما بذله من جهود في سبيل الرفع من قيمة اللغة والأدب، باعتبارهما السبيل الوحيد لتحرير الشعب المغربي من براثن الاستعمار.

من أجل هذا كان تناولنا لهذه الشخصية من خلال أثر محمد المختار السوسي في نهضة اللغة والأدب، كنموذج للفقهاء الأدباء في المغرب الأقصى، لذلك ارتأيت تقسيم هذا المقال إلى مبحثين:

المبحث الأول: محمد المختار السوسي فقيها.

المبحث الثاني: محمد المختار السوسي أديبا.

تمهيد:

محمد المختار السوسي: هو ابن أحمد بن محمد بن سعيد، ولد في شهر صفر سنة (1318 هـ / 1900م) بقرية "دوكادير"، وكان بكر والدته السيدة رقية، وسادس إخوته البالغ عددهم ستة عشر، وهو أول من سمي بمحمد المختار السوسي في قبيلته¹.

وقد نشأ محمد المختار السوسي في بيئة لها ما يميزها عن غيرها من حيث الموقع الجغرافي والثقافي والاجتماعي والاقتصادي.

أ. الموقع الجغرافي: يقع المكان الذي تربى فيه محمد المختار السوسي ب: "سيط إيليغ" المنشأ الأول للفقير الشاعر في قلب سلسلة جبال الأطلس الصغير، التي تقع في إقليم سوس من الشمال الشرقي إلى الجنوب الغربي، ويوجد هذا السيط شرقي تيزنيت على بعد (84 كلم)، وغرب بلدة تافراوت على بعد (25 كلم)، وهو موز حاليا بين خمس مناطق، فيه تابعة إداريا لتافراوت بإقليم تيزنيت.

وتوجد قرية دوكادير مسقط المختار السوسي بقرية آيت عبد الله أولاد سعيد²، وتتميز هذه المنطقة بأنها جبلية قاحلة جدداء، بيئتها صحراوية نظر لضعف الأمطار وقلة الأراضي الصالحة للزراعة من جهة أخرى وقلة المياه الجوفية.

¹ - السوسي، محمد المختار (1963)، الإلغيات، مطبعة النجاح، الرباط، المغرب، ج 2 ص 214.

² - خليل، محمد، (1985)، محمد المختار السوسي: دراسة لشخصيته وشعره، طبعة 1، مؤسسة للطبع والنشر، الدار البيضاء، ص 50.

ب . **الحالة الاقتصادية:** من خلال هذا الوصف الجغرافي الموجز يتضح مسبقاً أن الحالة الاقتصادية لن تكون على ما يرام؛ فالفلاحة جد محدودة؛ نظراً لانعدام الأراضي الصالحة للزراعة ومواردها لا تكاد تفي بحاجيات ومتطلبات السكان.

ج . **الحالة الاجتماعية:** إن الطابع الغالب على الناحية الاجتماعية هو الطابع البدوي؛ فمساحة المنطقة تمثل نسبة (12,5%) من مجموع مساحة التراب الوطني، وكذا السكان يمثلون (7,5 %) من مجموع السكان، ولا يمثل الحضرىون منهم سوى (10%)³.

د . **الحالة الثقافية:** لعل المختار السوسي يعد من أبناء البوادي المغربية القليلة إن لم تكن البادية الوحيدة التي تأصلت فيها تقاليد علمية عريقة يرجع عهدها إلى العصور الإسلامية الأولى من الفتح الإسلامي. ورغم كون لغة السكان المحلية هي الأمازيغية ورغم صعوبة الموقع استطاع النشاط العلمي والثقافي أن يبرهن على وجوده بسوس، ويذكر صاحبنا أن أول مدرسة علمية تأسست بالمغرب في البوادي هي مدرسة " آكلو " قرب تيزنيت⁴، ولقد كانت العلوم التي تدرس في هذه المدارس لا تختلف عن التي كانت تدرس في المدن الكبرى من علوم الدين واللغة والحساب والفلك والأدب، وقد تخرج منها علماء مشهورون، ولا زال كثير منها قائم إلى الآن يؤدي رسالته التي أسست من أجلها، ولعل ذلك ما ظهر على شخصية محمد المختار السوسي على حياته وتأثره بها.

ومن هنا فلا غرابة إن اجتمعت كل هذه الخصال لصاحبنا وذلك لما كان يغزر به محيطه من علم وصلاح؛ فهو ينحدر من أسرة عظيمة جده الولي الصالح سيدي عبد الله بن سعيد النمالي الذي عاش ما بين (955هـ إلى 1051هـ)⁵؛ فمنذ هذا العصر أي بداية القرن الحادي عشر الهجري أصبح لهذه الأسرة مكانة علمية وصيت بسوس من النواحي الدينية والعلمية والاجتماعية، ولعل هذا ما انعكس على مكانة الفقيه الشاعر وشخصيته ونشأته، مما جعله أهلاً لما كان عليه.

المبحث الأول: محمد المختار السوسي فقيهاً.

يظهر مما سبق أن المكانة التي كانت تحظى بها أسرة محمد المختار السوسي من الناحية العلمية والدينية؛ جعلته يتبوأ المكانة العلمية والسياسية التي كان الشاعر أهلاً لها، وهذا ما سأحاول إبرازه من خلال دراستي

- إحصاء السكان المغربي سنة 1971، نشر إحصائيات بالمغرب، نشر كتابة الدولة للتخطيط والرصد الجوي.

²- محمد خليل، مرجع سابق ص 154.

³- أنظر ترجمته في المعسول ج 1 ص 80.

لشخصية المختار السوسي العلمية سواء على صعيد المنشأة وما لاقاه من عناء السفر والترحال من المشايخ والمدارس وما قدمه من مجهود فقهي سواء على صعيد التوجيه أو التدريس.

المطلب الأول: جهوده وآثاره الفقهية.

إن دراسة أي شخصية علمية لابد أن تنطلق من الاطلاع على المجهود العلمي والفقهي الذي تلقاه العالم في طلبه للعلم وما عاناه من جهد وعناء في سبيل تحصيله الغاية العلمية وما صاحبنا ببذل في ذلك؛ فقد تعرض فعلا لهذه المراحل منذ نعومة أظافره في طلب العلم.

أ . دراسته العلمية:

تلقى المختار السوسي مبادئ القراءة والكتابة وحفظ القرآن في بداية عمره على يد والدته شأنه في ذلك كشأن باقي إخوته، وبعد ذلك انتقل إلى مرحلة حفظ القرآن الكريم، وتعلم مبادئ القراءة والكتابة بين عدة شيوخ ودامت هذه الفترة إلى منتصف القرن الرابع عشر الهجري وبالضبط سنة (1329 هـ). وهكذا التحق أولا بكتاب قريته حتى قضى فترة من الزمن ختم القرآن فيها على يد الفقيه عبد الله الإيغلالي، وفي شهر محرم سنة (1327 هـ) حمله أبوه صحبته إلى العركوب فتعلم هناك على يد الفقيه علي الإكمالي⁶. وهكذا افتتح أول دراسته في منطقته، وظل يجول فيها لطلب العلم ومصاحبة العلماء إلى أن أخذ ما استطاع أخذه منها.

ب . رحلاته العلمية:

لقد تشبث محمد المختار السوسي بجميع العلوم التي كانت تفتخر بها منطقة سوس، ثم بدا له بعد ذلك أن يرحل في طلب العلم إلى الحواضر العلمية الكبرى مثل مراكش وفاس وغيرها من الحواضر العلمية القائمة آنذاك في المنطقة المغربية المزدهرة لينهل من معينها العلمي والثقافي.

فأول رحلة قام بها إلى مراكش عاصم العلم في بداية (1338 هـ)، فالتحق بكلية ابن يوسف حيث قضى بها في طلب العلم خمس سنوات؛ فدرس فيها جملة من فنون العلم على عدة شيوخ وكان من أبرزهم في هذه المرحلة كل من: محمد بن الحسن القاضي، وابن عمر الرعيني، وأبو شعيب البهلول... وغيرهم ولعل أبرز ما تميزت به حياته في هذه الفترة التقدر التام للقراءة والدرس والتحصيل، وانشغاله في مطالعة الكتب، وذلك مما ساعده على الإطلاع الكبير الذي كان يتمتع به في حدود معرفة الحياة العصرية بعض الشيء.

⁶ - الإلغيات، مرجع سابق، ج 2 ص 214.

1. كان يقوم من حين لآخر برحلات إلى القبائل المجاورة وخاصة أثناء المواسم الدينية التي كان أهل الزاوية الدرقاويون ينظمونها في أوقات معينة من كل سنة، وكان وقتها متمسكا بالطريقة الدرقاوية على الرغم من سلفية بعض شيوخه.
 2. ثم بعد إكمال دراسته من مراكش انتقل إلى فاس لإكمال دراسته وهو آنذاك في الخامسة والعشرين من عمره، وكان يصاحبه أخواه الأصغر.
- ودامت هذه المرحلة أربع سنوات استفاد منها الشيء الكثير سواء من الناحية العلمية والأدبية، أو من حيث تطوره الفكري السياسي الوطني، وذلك لأن مدينة فاس كانت وقتها رائدة النهضة الحديثة في فاس⁷ إلى جانب الرباط وتطوان.
- فصاحبنا قد انتسب إلى القرويين في هذه المرحلة وذلك مما مكنه من الالتقاء بشيوخ أثروا في حياته العلمية والسلوكية، وهكذا نجد الشاعر والفقيه قد نزع عنه في هذه المرحلة رداء العزلة والانزواء، وتشبع في تفكيره وسلوكه الديني بالحركة السلفية وتحرر إلى حد كبير من سلوك الصوفية الذي غلب عليه⁸، وقد استفاد الشيء الكبير علما وأدبا وفكرا، مما أهله لشغل وظائف كبيرة على الصعيد الرسمي الوطني، ويتجسد ذلك في تعيينه وزيرا في بعض المناصب في أول حكومة مغربية.
- ومن هنا تظهر لنا شخصيته فهو رجل علم قبل أن يكون رجل سياسة على الرغم مما كان للعمل السياسي آنذاك من اعتبار؛ إذ عمل من أجل الاستقلال السياسي، وكان يقول أنه خلق للعلم لا للسياسة، إلا أنه كان من بين الأفراد الذين أسسوا أول جمعية وطنية وهو طالب آنذاك بفاس، وكان علال الفاسي آنذاك رئيسا لها، كما كونوا في نفس الفترة جمعية أخرى للتدريب على الخطابة بالفصحى⁹.
- ثم رحل بعد ذلك إلى الرباط وذلك في سنة 1347 هـ، وفي هذه المرحلة كان يحلم بالسفر إلى مصر لإكمال دراسته، لكنه لم يحظ بالتوفيق، وقد قضى سنة ورحل إلى مراكش حيث حل فيها سنة 1438 هـ ونزل بالزاوية الدرقاوية التي أنشأها والده هناك، وفي هذه الزاوية كتب الفقيه الصحيفة الأولى في سجل حياة التدريس، والتوجيه الديني والنضال الوطني، وخدمة التراث العلمي والثقافي والوطني بصفة عامة؛ تلك الحياة التي شملت النصف الثاني من عمر إلى حين وفاته 1383 هـ / 1963م¹⁰.

7- أحمد السليمان، رضي الله محمد المختار السوسي من الزاوية إلى السلفية، مجلة الربيع، عدد1، ربيع 2015- ص 140.

8- نفس المرجع السابق، ص 138.

9- أعمال الندوة التي نظمت من أجله ص 21.

10- محمد المختار السوسي، ص 54.

ج . مؤلفاته وآثاره العلمية:

لقد حل صاحبنا إلى مراكش لبناء صرحه العلمي والثقافي والنضال، ومن هنا يبرز اختيار صاحبنا لمدينة مراكش محل إقامته لانطلاق نهضته العلمية والنضالية في عدة أمور أهمها:

1. كونها مدينة عريقة لعبت أدوارا في مراحل مهمة ومشرقة في تاريخ المغرب الإسلامي.
2. موقعها الجغرافي الذي يعطيها أهمية كبرى بالنسبة للإقليم.
3. إقليم سوس غير صالح ليتخذ الشاعر موطنا كما سبق لصعوبة أداء الرسالة التي آل على نفسه القيام بها⁽¹¹⁾.

ومن هنا تبرز لك شخصية صاحبنا من خلال اختياره لهذه الأرضية الصالحة لتكون منطلقا لمجهوده العلمي والثقافي، فهو بحق رجل علم كما قال هو نفسه قبل أن يكون رجل سياسة، لذلك نراه قدم مجهودا ضخما وصرحا علميا عظيما، ويظهر ذلك جليا في كثرة مؤلفاته العلمية والثقافية والأدبية؛ فهو رجل نهضة ووعي وتوجيه، ومن أهم مؤلفاته:

. المعسول: في عشرين جزءا وهو عبء عن موسوعة يجد فيها الباحث كل ما يريد معرفته عن سوس من جميع النواحي الاجتماعية والأدبية والثقافية والسياسية.

الجانب الأدبي:

- . مترعات الكؤوس في بعض آثار أدباء سوس، مخطوط في جزئين.
- . خلال جزولة: في 04 أجزاء، مطبوع.
- . الإلغيات: في 03 أجزاء.
- . الترياق المداوي في أخبار الشيخ علي المداوي: في جزء واحد. مطبوع.
- . أصفى الموارد في تهذيب الرحلة الحجازية للشيخ الوالد: في جزء واحد، مطبوع.
- . سوس العالمية: مطبوع.
- . من أفواه الرجال: في ثلاث أجزاء، مطبوع.
- . المجموعة الفقهية: مطبوع.
- . ذكريات: مطبوع.
- . طاقة ريحان من روضة الأفنان، مطبوع.

¹¹ - نفس المرج السابق، ص 55.

إلى غير ذلك من المؤلفات الدينية والأدبية، وغير ذلك من جهوده الفقهية كما سنبين ذلك لاحقا.
المطلب الثاني: جهوده الفقهية:

إن شخصية العلامة محمد المختار السوسي رمز العلم والمعرفة، تعد في مقدمة رجال العلم؛ فشخصيته شخصية فذة مما تحمل الكلمة من معان، فهو شخصية أدبية كما أنه شخصية فقهية، قل ما تجده إلا وهو يحاول القراءة والمطالعة سواء وحده أو مع الجماعة؛ فهو لا يثنيه عن القراءة والمعرفة شيء منذ فتوته إلى شيخوخته إلى أن وافاه الله¹².

فقد كان واسع الاطلاع على علوم الدين في جميع فنونه سواء كان في الفقه والحديث والتفسير شديد التمسك بقواعده وتدوينه، ولم يكن متزمتا تزلزلت رجال النصوص، بل كان نابعا من المبدأ السلفي الرامي إلى التمسك بالدين الحنيف اعتمادا على منابعه الأصلية المتمثلة في الكتاب والسنة، وقد نافح عن هذا المبدأ وكافح بالكلمة وبالممارسة، ويتجلى دفاعه بالكلمة بالمحاضرات وخطب الجمعة التي كان يلقيها من حين لآخر، وفي دروسه الدينية والإرشادية في المساجد التي واظب على إلقائها إلى آخر حياته، وذلك في مختلف المدن التي عاش فيها، انطلاقا من مراكش والدار البيضاء، وسيرا في تحقيق هذا المبدأ وضع تأليف دينية تعتبر زبدة آراءه الدينية من ضمنها مجموعة من الفتاوى في قضايا معاصرة تتم عن خلفية الرجل الفقهية، كما تكشف عن اطلاعه وتفهمه لفقه الواقع المعاصر، ومنها هذه الفتوى:

هل يوجد لقتل تارك الصلاة عمدا في الوقت حدا من دليل؟؛ فهو مبحث فقهي مستفيض أبان فيه نوعا من الاجتهاد في ابتداء آراءه الفقهية، ومن أهم البحوث التي تناولها إضافة إلى:

وشى المطارف في ثبوت الهلال بالخبر الرسمي من الهاتف، إلى غير ذلك من المؤلفات التي لا يسع المقام لذكرها؛ جمع فيه الأدلة والأقوال على إثبات خبر الهلال بالهاتف.

ومن خلال كتابه المجموعة الفقهية في فتاوى علماء سوس يبرز رسوخ قدم الرجل في الفقه؛ فهو حاول في هذا الكتاب أن يجمع هذه الفتاوى وأن يمازج بينها مفرعا عليها، وهذه الفتاوى حاول فيها جمع الفتاوى المتعلقة بأبواب الفقه الذي هو قانون الحياة بالنسبة لجميع المسلمين كما يقول: الفقه قانون الأمة ومصدر تشريعها ثم كان أكبر داع لرفع شأن صاحبه.

المبحث الثاني: المختار السوسي أديبا.

¹² - الجبراري، عباس، أعلام الفكر المعاصر، ج 2 ص 127.

تقترب حياة المختار السوسي الأدبية من نصف قرن وهي مدة كانت سلسلة متصلة الحلقات من العطاء الأدبي والفكري في آن واحد، ومن خلال آثاره الأدبية يتبين لنا أن المختار السوسي لم يكن شاعرا فحسب بل كان إلى جانب ذلك كاتباً وناقداً، ولهذا سنتطرق في هذا المبحث إلى مطلبين: الأول: المختار السوسي الكاتب والناقد، والثاني: محمد المختار السوسي الشاعر.

المطلب الأول: المختار السوسي الكاتب والناقد

إن أول عهد المختار السوسي بالكتابة الأدبية كان مقترنا ببداية معاناته للشعر، وكان ذلك أيام دراسته بتانكرت خلال سنوات (1914 . 1917)، حيث إن العادة كانت سائدة في أوساط أدباء سوس أن يتبادلوا فيما بينهم رسائل أدبية إخوانية يمتزج فيها الشعر بالنثر.

سارت الكتابات الأدبية تنمو وتتطور على مر السنين، متأثرة ومواكبة لكل الظروف التي مر بها والبيئات التي عاش فيها، فتتوعد مجالاتها، وتعددت موضوعاتها لتشمل كثيرا من الميادين التي كانت تتناولها الكتابة الأدبية عند العرب منذ قرون، حيث برزت عنده خمسة اتجاهات أساسية وهي:

1 . الرسائل الإخوانية.

2 . الوطنية.

3 . الرحلات.

4 . الترجمة الذاتية.

5 . النقد الأدبي.

إضافة إلى محاولتين في كتابة الرواية، أولها رسالة الشباب وقد ضاعت منه، والثانية: بين الجمود والميع إلا أن هاتين المحاولتين لم ترفعا إلى درجة يستطيع أن يحتل مكانة بين الرواية، ولهذا فإنني سأقتصر على إيضاح الجوانب الخمسة الآتية الذكر¹³.

الفرع الأول: الرسائل الإخوانية:

كان هذا الموضوع هو أول ما تناوله الشاعر في أدبه النثري وذلك نتيجة البيئة الأدبية في سوس التي كان جانب الإخوانيات فيها مستوليا على معظم الإنتاج الأدبي شعرا ونثرا، وقد لازمه هذا الموضوع في مختلف أطوار حياته حيث شغل مؤلفات بكاملها؛ مثل: "نظائد الديباج في المراسلات بين المختار والقباچ"، والرسالتان البونعمانية والشوقية، فضلا عن فصول مهمة في كل من "الإلغيات"، و"خلال جزولة" و"المعسول".

¹³ . أعلام المغرب، المختار السوسي، مصطفى الشليح، أحمد السليمان، ص 20.

إن هذه الرسائل كانت أداة تواصل ومناجاة بينه وبين أصدقائه الأدباء في مختلف أطوار حياته يلقي إليهم فيها بما يختلج في نفسه، ويشير معهم قضايا أدبية واجتماعية وأحياناً سياسية.

فمن رسائله نقطف هذه الفقرة من رسائله وجهها سنة 1916 وهو في السادسة عشر من عمره إلى أحد أساتذته بالمدرسة الإلغية؛ وهو البشير بن الطيب السليمانى يقول له: " أذكى السلام على من ألفت إليه الأنام يد استسلام، على من لا تزال الوفود ببابه أبداً ويكرمهم ويمنحهم أجزل العطايا، السيد الكريم والنبيل والطود العظيم، اللبيب الأريب، ومن هو إلى كل خلق حبيب، ذي المكارم الجمّة الكثيرة، والفضائل التي هي كالدرر في محاسنها المنيرة السيد البشير بن الطيب...¹⁴.

وهناك رسائل أخرى لا تختلف عن سابقتها وهي رسالة وجهها من مراكش في جمادى الأولى 1314 إلى أحد أساتذته حينما كان طالباً بمدرسة تانكرت بإفران الأطلس الصغير مولاي عبد الرحمن البوزكارني يقول فيه: " الشريف الذي به إذا عد ذوو المجد المحض الابتداء، وبكمالته في مجامع الكمالات والافتداء، وبنور عزته ونبراس فكرته في دياجي الليل"¹⁵.

فأسلوبه في هذين النموذجين بادي التكلّف، فيه غلو فيه تصنع العبارة مع حشو وإطناب لا لزوم لهما. بيد أن الأسلوب الذي كان سائداً في ذلك العهد في الأوساط الأدبية في المغرب عامة لم يكن بعيداً عن هذا الاتجاه، إلا في حدود جد ضيقة لدى فئة قليلة من شباب الحواضر الكبرى فاس الرباط تطوان الذين بدؤوا يتحررون منه متأثرين بكتابة دعاة التجديد في الشرق العربي الذي تصل كتاباتهم الفنية إلى المغرب عن طريق المجلات وبعض الكتب.

إلا أنه مع انتقاله إلى الرباط حيث كان طالباً سنة 1928 / 1929 م بدأ يتحرر من قيود السجع والإغراق في حشد كتاباته بالعبارة الغربية، حيث إنه وطد علاقته بجماعة من أدباء العدوتين شيوخا وشباباً، وجماعته بالأديب محمد بن العباس القباج روابط خاصة قال المختار السوسي: " وأما النثر المرسل فأستاذي فيه ابن العباس القباج يوم كنت أرافقه في الرباط فإذ ذاك تملصت من السجع"¹⁶.

وقد كانت المرحلة الجديدة من حياة الشاعر مرحلة النفي **بالغ** فاتحة عهد جديد ليس في حياته العلمية فحسب، ولكن في حياته النثرية الأدبية، كذلك كانت فيها لرسائل الإخوانية أداة تواصل بينه وبين أصدقائه في مرحلة

¹⁴. الرسائلان البونعمانية والشوقية المختار السوسي ص 22.

¹⁵. الرسائلان البونعمانية والشوقية، محمد المختار السوسي ص 22.

¹⁶. الإلغيات المختار السوسي، ج 2 ص 229.

النفي حيث منع عليه الاتصال بالعالم الخارجي، كما فرضت عليه قيود عديدة تمنع من يريدون الاتصال به في إقامته بالغ.

كان محمد المختار السوسي يتبادل هذه الرسائل مع الأدباء داخل سوس وخارجه، تتناول المناسبات كالتهاني والتعازي والعتاب، وأن تتخذ فرصة لإثارة قضايا أدبية وفكرية وكان في رسائله هذه يتأرجح بين أسلوبين متناقضين من الكتابة.

أ. فهو يكتب مرغوماً بأسلوب مسجوع منمق، معتمداً على الاقتصاد في ذلك ما أمكن حينما كان يخاطب أدباء سوس الذين كانوا لا يزالون متمسكين بهذا الأسلوب محاكاة لكتاب عصر المقامات التي تحضى بمكانة بارزة في دروسهم الأدبية¹⁷.

ب. فهو يكتب بنثر مرسل يتحرر فيه من القيود وذلك حينما يخاطب أدباء الحواضر في مراكش والرباط وغيرها، فالملاحظ أن أسلوب المختار السوسي كان يختلف في رسائله الإخوانية الموجهة إلى أدباء سوس داخل الإقليم من جهة والأدباء خارج الإقليم أي أدباء الحواضر، فهو يحاول إرضاء أذواق الطرفين معا مما أوتيته من قوة أدبية في الكتابة بالأسلوبين في آن واحد؛ أسلوب المقلدين، وأسلوب المجددين. أما من حيث الموضوعات فإن رسائله الإخوانية كانت رسائل هادفة في معظمها يوجه ويرشد ويستنهض الهمم¹⁸.

الفرع الثاني: الوطنيات:

كان هذا الموضوع في كتاباته أشبه بمقالات حماسية استهدف بها إثارة الآخرين ضد المحتلين، رغم أنها لم تكن تنشر في الجرائد حتى يقرأها الجميع، ذلك لما قامت الحماية بنفيه إلى مسقط رأسه **إلغ**، حيث أرادت أن تسكت صوته الذي كانت تعتبره من الأصوات التي لا تشوش عليها فحسب، بل كانت تعتبره يهدد وجودها وينذر بزوال حكمها في البلاد، حيث كان يظن المستعمر أن نفيه سيؤثر عليه ويؤدي إلى تراجع المختار عن مبدئه وبالتالي تعاونه معه.

كل هذا لم يزد المختار السوسي إلا تمسكا بمبدئه مكافحا بقلمه الذي نشط في هذه المرحلة نشاطا لم يعرفه من قبل، فكتابات الأدبية كانت صيحة مدوية ضد المستعمر ففيها كشف عن مصائبه وسخطا عن تعسفاته ضد الوطنيين الأحرار وإصرارا على عدم التخلي على المبدأ الذي كان سببه نفيه، يقول: " ليشهد التاريخ بما نقاسي

¹⁷. محمد المختار السوسي ص 236.

¹⁸. المرجع نفس ص 240.

فإننا نستشهد العالم أجمع، فمن يشهد له التاريخ ويؤيده العالم وأيد قوله الواقع فهو الذي سينتصر ولو بعد حين¹⁹.

ومن كتاباته الوطنية والأدبية فصل بعنوان: " حول دعاية فرنسا في المذيع أثناء الحرب العالمية الثانية". عقب فيه على حديث أسبوعي كان يذاع مساء كل خميس يشيد بما أنجزته فرنسا من منشآت في المغرب، وقد تناول المختار تلك المزاعم بالتحليل موضحا أكاذيبها وفاضحا حقيقة سياستها التي لم تجر للوطن سوى الاستعباد والاستغلال يقول: " أي طبقة من طبقات الشعب المغربي التي لم تتلها الإساءة عظيمة من فرنسا التي تدعي الديمقراطية وأنها أن الإخاء والمساواة والحرية، أ طبقة الفلاحين الذين شهدوا بأعينهم أراضيهم التي ورثوها جدا عن جد تنتزع منهم ملكيتها بأسماء ملفقة؟ وهم في أسفل الدركات منذ عهد الحماية إلى الآن لأن الاستعمار يدرك رؤية مساوية كما هي لا تأتي إلا بالعلم، كيفما كان العلم والثقافة، فوقف في وجه طالب العلم وصنع في وجه المتصفين به²⁰.

ويتحدث عن حالته النفسية المضطربة في المنفى نتيجة تخوفه من تأخر ساعة الاستقلال نظرا لما يسود العالم من ويلات الحرب العالمية الثانية ويعبر عن تخوفه من انعكاس نتائج هذه الحرب على المغرب انعكاسا سلبيا سياسيا واقتصاديا واجتماعيا.

فالمختار السوسي يواكب أحداث وطنه من المنفى بعيدا عن وسائل الاتصال، فلا إذاعة ولا صحف ولا مجالس، ومع ذلك يسخر بعض مريدي زاوية والده فيتصلون بأصدقائه وزملائه في الكفاح ليحملوا إليه سريرا خلاصة ما يجري في ساحة الأحداث، وهكذا ضل يساير ويتتبع ما يجري ويعيش ذلك كله بقلبه وقلمه الذي يسجل ما يصدر عنه من شعر ونثر يكشف به خلجات نفسه ويصف به مشاعره الذاتية وأحاسيسه الوطنية²¹.

الفرع الثالث: الرحلات:

حرص المختار السوسي على تدوين رحلاته ابتداء من الطور الثاني من حياته طور الأستاذية والكفاح ذلك أنه سجل مشاهداته ولقاءاته ومجالسه العلمية أو الأدبية التي كانت تتخلل تلك الرحلات، سجل ذلك على شكل مذكرات ثم عمل على إخراج بعضها في كتب مستقلة على غرار ما نجده في كتب " من مراكش إلى إلبيغ"، "خلال جزولة"، "والرسائل الشوقية والبونعمانية"²².

19. الإلبيات ج 1 ص 202 . 203.

20. المرج نفسه ج 2 ص 70

21. المختار السوسي، دراسة لشخصيته وشعره ص 243.

22. أعلام المغرب ص: 20.

يقول المختار السوسي في فصل بعنوان: "كيفية أعراس تارودانت": متى يخطر ببالي العزب أن يتزوج بيدي فكرته لقرنائه الذين هم أصحابه ممن لم يتزوجوا بعد أن يتذكر معهم في ذلك، ويحيلون القداح حول الأسر وكرمائها حتى يستقر رأيهم على كريمة بني فلان فينسل أحدهم ليجس نبض والدها أو ولي من أوليائها إن لم يكن حي والدها فيدأوله حتى يجره إلى أن فلان ربما خطر له الالتفات إلى كريمتك فما رأيك فإني كرسول خاص من قبله²³.

وهكذا يدون المختار السوسي رحلاته مسجلا مشاهداته تسجيلا دقيقا، وكيفما كان نوعها وهدفه من ذلك هو التسجيل للتاريخ، وإعداد الوثائق الأساسية للباحث والمؤرخ الذي سيظهر في الأجيال التي ستأتي من بعده، فهو لا يميز بين مشاهداته ولا يهملها كيفما كانت، إلا أنه يتدخل من حين لآخر ليوضح رأيه أو معارضة ليكشف عن موقفه للقارئ دفعا للبس أو التأويل²⁴.

الفرع الرابع: الترجمة الذاتية:

إن المختار السوسي لم يكتب لنفسه ترجمة ذاتية مكتملة، ولمن فعله لا يعدو أن يكون تناوله بكتابة من فترات حياته، أو عرض جانب من جوانب نفسيته أو شخصيته. فالمختار لم يكن يهدف من الترجمة لنفسه إلا لغاية يمكن أن نقول أنها تربوية توجيهية، فالهدف الذي يسعى إليه هو جعل القارئ يعتبر مما يعرضه عليه من مواقف ومشاهد في حياته المليئة بالأحداث والكفاح من أجل الوصول إلى الأحسن، ليس بتحقيق النفع الخاص ولكن بتحقيق النفع العام، فحياته كانت حياة نكران للذات²⁵.

لقد كتب من ترجمته وتحدث عن جوانب نفسية متوخيا الموضوعية إلى حد بعيد إن لم نقل أنه كان يغالي في التواضع، فليس هناك ذكر لمحاسنه، أو تمجيد لشخصيته، بل نجده يحاول جاهدا أن يبرز من لهم عليه فضل في تكوينه ولو كان بسيطا مثليا عليهم.

لقد استهل ترجمته بفصل معنون: **على قمة الأربعين** بقوله: يمد إليك يا رب العالمين عبدك المسكين محمد المختار يده من يتوسل إليك بأسمائك الحسنى، وصفاته العليا أن تضمنه مع كثرة ذنوبه واحترامه لأنواع عظيمة من الآثام في سلك المغفور لهم، الممنون عليهم برضاك فأنت أهل الستر وأهل المغفرة²⁶.

²³. خلال جزولة ج 1 ص 26.

²⁴. محمد المختار السوسي دراسة لشخصيته وشعره، ص 246.

²⁵. المرجع نفسه ص 248.

²⁶. الإلغيات ج 2 ص 207.

ثم يقول: هذه ذكريات عن أول تمييز، فقد كنت من ذلك الوقت إلى الآن منخرم الذاكرة لا أستحضر بما مر بي إلا قليلاً... وزاد انخرام الذاكرة عندي صار يذكرها الركبان وعرفها مني الإخوان حتى إنني لا أنسى أسماء الناس وجوههم فتقع لي بذلك مشاكل²⁷.

إن هذه الاعترافات مبالغ فيها وهدفه من ذلك هو أن يسبغ على نفسه ميزة التواضع مدعياً أنه لا يستحق كل ما يحض به عند الآخرين من تقدير وتمجيد²⁸، ويعترف المختار حين يقول "وأما الحساب والفرائض وكل أنواع الفقه فإنني في ذلك ضئيل الفهم قصير الباع حتى بعد مدارستي وتدريسي"²⁹.

ولعل كتابه "مواقف مخجلة" يعتبر قمة التواضع في الترجمة الذاتية إذ عرض فيه حوالي ستين موقفاً صدر عنه خلالها توتر أو غضب أدى إلى تطاوله على آخرين مما يعتبر مسا بكرامتهم، فالكتاب أشبه مما يكون باعترافات حقيقية صور فيها مواقف شعر فيها بالخل والذنب.

ولذلك فترجمة محمد المختار تتوفر على جانب كبير من الموضوعية والواقعية مما يعطيها قيمة جديرة بالاعتبار أدبياً وتاريخياً³⁰.

الفرع الخامس: النقد الأدبي

كانت العادة في المدارس العلمية بسوس أن تقام مجالس أسبوعية تخصص لقراءة نصوص أدبية وشعرية ونثرية وتناولها بالدرس والتحليل وغالباً ما تكون هذه المجالس مناسبة لإلقاء نماذج أدبية من إنتاج أساتذة وطلبة من تلك المدارس أنفسهم، فبعد الاستماع إلى نص أدبي يفسح المجال لتدخلات الحاضرين الذين يتناولون ما عرض بالنقد والتحليل من حيث الشكل كما أن نقدهم ينصب على الجوانب اللغوية والبلاغية والعروضية، موضحين في عبارات أو مقترحين تعديل أو حذف صور بيانية أو مبرزين ما في القصيدة من خلل في الوزن، ومن حيث الموضوع يعرضون آراءهم حول مدى توفيق الأديب في تناوله القضية التي أثارها في إنتاجه الأدبي³¹.

فكان الغالب على تلك المجالس الاتجاه التقليدي، فهم يتخذون مثلهم دالاً على الأدب العربي القديم من جاهلية وإسلامية وعباسية وأندلسية، لأن احتكاكهم بهذه النماذج كان قوياً وذلك لمطالعتهم لها ومحاكاته في إنتاجهم،

²⁷. المرجع نفسه ج 2 ص 215.

²⁸. محمد المختار ص 249.

²⁹. الإلغيات ج 2 ص 229.

³⁰. المختار السوسي، ص 250.

³¹. أعلام المغرب، محمد المختار السوسي، مصطفى الشليح، محمد السليمان، بوشتي السكيوي ص 20.

وكان من المسلم أن يتأثر بالمذاهب النقدية لذلك العهد، مما كان يروج عندهم من كتب الأدب العربي القديم مما ألفه جعفر بن قدامة والجرجاني وغيرهم.

هذه البيئة قطف منها المختار الزهرات الأولى لتكوين بقية ثقافته النقدية وإبراز شخصيته كناقد أدبي، وقد طعم تكوينه بما تلقاه في فاس، حيث اطلع بشكل واسع على النهضة الأدبية في الشرق العربي بما يروج من مذاهب نقدية حديثة تزعمها في ذلك الوقت طه حسين والعقاد والمازني وغيرهم³²... وبرحيله إلى مراكش أنشأ مدرسته المعروفة، فأعطى للجانب النقدي والأدبي حيزا كبيرا حيث كان من جملة ما يدرسه طلبته حفظ عيون الأدب، ك: "لامية العجم" و"لامية العرب" وبائية أبي تمام... وشرح ذلك، وعمل على خلق سوق أدبية تعقد كل عشية أربعاء تلقى فيها قصائد فخريّة وحماسية يتبارى فيها الطلبة.

كل هذه العوامل ركزت في نفس المختار ميلا مبكرا إلى النقد تناولا وممارسة فهو مارس النقد تدريبا وتعلما في مدرسة الرميّة التي تخرج منها عدد كبير من الأدباء الذين كانوا رواد النهضة الأدبية في مراكش، يقول المختار عن النقد: "والانتقاد لازم أكيد، ما لازم سواء السبيل يصدر عن علم يورد عن احترام لا يجرح عاطفة ولا يمس كرامة يقوم به المتسبغون بالفهم الممتاز وحسن الاختيار"³³.

ويرى المختار أن النقد ينبغي أن يكون أداة بناء لا أداة تخريب، فالحركة الأدبية في نظره حديثة العهد في المغرب، والأدباء الشباب في حاجة إلى تشجيع حتى تتفتح مواهبهم، ويرى كذلك أن الناقد مطالب بإبراز الجوانب الإيجابية فيما ينتقد كما أنه غير مطالب بالسكوت عن السقطات، وأما مقاييس النقد الأدبي الغربي فلا تنطبق على الأدب العربي في المغرب لاختلاف الثقافات والبيئات، ومحاولة تطبيق ذلك على أدبائنا سيؤدي إلى نسف أدبنا من أصله، ويلج على ضرورة تمكن الناقد من مادته، وذلك بتثقيف نفسه ثقافة مكتملة لغوية وأدبية.

ومقاييس النقد عنده ثلاثة أقسام:

القسم الأول: ما محوره القواعد المسطرة في الفنون مما لا يمكن أن يختلف فيه اثنان يعرفان تلك العلوم، فمن قيل له استعملت الرؤيا في موضع الرؤية فما عليه إلا أن يقبل الحق.

القسم الثاني: ما يرجع للذوق السليم فقط، حتى لو اجتمعت جماعة من أرباب الفن لأجمعوا على شيء لا مستندهم إلا الذوق وما حداهم ذلك، ووجه تلك الوجهة المتوحدة إلا الدراسة الواسعة.

³² محمد المختار السوسي، ص: 252.

³³ جريدة رسالة المغرب، السنة 9 عدد 50، فبراير 1950.

القسم الثالث: المتشابه الذي تختلف فيه الأدواق ويكاد المستولون على ناصية الفن يجمعون فيه على شيء فليحتفظ كل واحد بذوقه الخاص³⁴.

المطلب الثاني: محمد المختار السوسي شاعرا

لقد ظل المختار السوسي يقرض الشعر مدة تقارب نصف قرن واكب فيه شعره مختلف مراحل مسيرته الفكرية، معبرا عن معاناته انطلاقا من المفهوم الذي يعطيه للشعر وللرسالة التي يراها موضوعا على عاتق الشاعر، ومطالبها بأدائها وهذا المفهوم يهم مضمون الشعر وهدفه.

فمن حيث المضمون: لم يكن الشاعر يعترف بأن الشعر هو " قول موزون مقفى يدل على معنى " وإنما يرى أن الشعر يجب أن يكون: " معبرا عن الذات والإحساس، ومعبرا كذلك عن الشعور العام³⁵ محققا في نفس الوقت متعة فنية وجمالية. وقد عبر عن هذا المفهوم في أكثر من موضع، من ذلك من قاله في قصيدة له ترجع إلى مرحلة دراسته بفاس ومنها:

ما الشعر موزونا بقافية له	معنى بأسماع الجليس سديد
لكنما الشعر الذي إن جال في الأ	سماع يذهب بالفتى ويعود
ويرن أثناء الضمير برنة	نفحاتها يحيا بها الموءود
فيثير مكنون الضمير كأنه	وحي من أكناف السماء جديد
ويبث روحا في الشعوب فتتني	عاد إلى عليائها وثمود
هذا هو الشعر الذي اختاره	ويروق لي وأوده وأريد ³⁶

وأما من حيث هدف الشعر فالشاعر كان يتصارعه اتجاهان: اتجاه الأديب واتجاه العالم؛ فالشاعر عنده هدف قريب وآخر بعيد؛ فهو أحيانا يصرح بأنه: "ينطلق من مفهوم معين للشعر، وهو مفهوم يربط الشعر بثقافة العالم أو الفقيه، باعتباره عنصرا مكملا لهذه الثقافة ووسيلة لإظهار القدرة التعبيرية"³⁷. هذا هو الهدف القريب عنده، أما الهدف البعيد فيتجلى فيما يراه فيه من كونه جديرا بأن يتخذ أداة نضال يرمي به إلى التوعية والتربية والتوجيه³⁸.

³⁴ محمد المختار السوسي ص 254.

³⁵ الأدب المغربي من خلال ظواهره وقضاياها، عباس الجبراري، ج 1 ص 202.

³⁶ الأدب العربي في المغرب الأقصى، للأستاذ القباچ ج 2 ص 69.

³⁷ الأدب المغربي ج 1 ص 200.

³⁸ محمد المختار السوسي دراسة لشخصيته، محمد خليل ص 421.

ويمكن أن نقسم حياة الشاعر إلى مراحل أدبية ثلاثة وهي:

أولاً: مرحلة النشأة: التي تبتدئ بمحاولاته الشعرية الأولى وتمتد إلى تاريخ حلوله بفاس، وهي مرحلة استمرت على مدى تسع سنوات أي ما بين سنتي (1916-1924م) تقريباً.

ثانياً: مرحلة النضج: وتبتدئ بحلوله بفاس لتنتهي بنفيه عن مراكش، وهذه مدة تبلغ حوالي ثلاث عشر سنة أي ما بين سنتي (1924-1937م).

ثالثاً: مرحلة الكهولة أو الشيخوخة: وتستمر من نفيه عن مراكش إلى وفاته، أي ما يقارب ثمان وعشرين سنة ما بين (1937-1963)³⁹.

ومما يلفت الانتباه أن محمد المختار السوسي بادر إلى نشر مجموعة مهمة من مؤلفاته التاريخية قبل وفاته، في الوقت الذي لم يقم فيه بنشر أي من الدواوين الثلاثة التي هي:

1. **الزهر البليل:** الذي خصصه لشعر المرحلة الأولى من حياته.

2. **قصائد:** الذي كان ينوي أن يدرج به سائر شعره.

3. **الرميليات:** الذي أدرج به قصائد كان يخاطب بها تلاميذه في مدرسة "الرميلة" بمراكش أو ينظمها

على ألسنتهم.

بيد أنه يرجح أن يكون الشاعر قد عدل عن فكرة جمع شعره في دواوين خاصة بعد أن ضم معظمه إلى مؤلفاته الأدبية والتاريخية الأخرى، حيث أنه كان يستغل مختلف المناسبات لإيراد قصائد من شعره التي كان يأخذها طبعاً من مشاريع دواوينه تلك، وقد اتضح ذلك من ديوانه "الرميليات" الذي أورده أكثر من نصفه في الجزء الثالث من كتابه المطبوع "الإلغيات"، ولعل ذلك حصل بالنسبة للدواوين الآخرين "الزهر البليل" و"قصائد"، إذ أن معظم شعره الوارد في المعسول وفي كتابه المخطوط "مشيخة الإلغيين من الحواضر"، يعود إلى مراحل الشعرية الأولى، هذا في الوقت الذي يضم فيه الكتابان: "الألغيات" و"خلال جزولة"، سائر شعره في فترة النفي إلى سوس، كما يضم كتاب: "معتقل الصحراء" كل ما صدر عنه أثناء النفي إلى "تافيلالت" خلال سنوات (1952-1954م).

ولعل الشاعر اقتنع في مرحلة من مراحل حياته بأن لا جدوى من جمع شعره في دواوين خاصة، وأن مكانه اللائق به هو أن يدمج في سياق مؤلفاته حينما تقتضي المناسبة ذلك، وقد كان يؤمن منذ وقت مبكر من حياته بأنه لم يصل بعد إلى مرتبة الشعراء الذين تستحق قصائدهم أن تسجل في دواوين خاصة؛ يقول الأستاذ القباج

³⁹. نفس المرجع السابق ص 490 . 491.

متحدثاً عن هذه الظاهرة لدى الشاعر: "يأنف من الظهور ويكره أن يكون شاعراً أو ينسب إلى الشعراء، لأنه يزعم أن الأمة المغربية التي لا تزال في طورها الأول من الانتباه هي إلى العلماء أحوج إلى الشعراء"⁴⁰. وبتتبع المصادر التي اعتمد عليها الدكتور محمد خليل في التعرف على إنتاج الشاعر، استخرج منها حوالي سبعة آلاف وسبعمائة بيت (7700)، تمثل مختلف أطوار حياته من جهة، ومختلف الموضوعات التي طرقها من جهة ثانية، ويأتي في مقدمة هذه الموضوعات:

1. الإخوانيات.

2. الوطنية.

3. التلميذيات.

4. الوصف.

إضافة إلى الموضوعات الشعرية الأخرى والمعروفة في الشعر العربي من مديح ديني، وتوسل، وحكم، ومواعظ، وغزل، إلا أن هذه الجوانب لا تحتل مكانة بارزة في هذا الشعر ولذلك سأخصص ستة فروع تكون جامعة لهذه الموضوعات وذلك على الشكل التالي:

الفرع الأول: الإخوانيات.

يحتل " شعر الإخوانيات" المكانة الأولى من بين الموضوعات الكثيرة والمتنوعة التي تناولها محمد المختار السوسي في شعره، إذ يغطي هذا الموضوع أزيد من ثلث شعره.

ويبدو أن سيطرة هذا الموضوع على شعره راجع إلى عاملين أساسيين⁴¹:

أ: عامل ذاتي: يرجع أساساً إلى صفة غلبت على سلوكه منذ صباه ولازمته إلى آخر لحظة من حياته، حيث كان يعتبر نفسه ذا رسالة تربوية إرشادية إصلاحية، وصاحب رسالة من هذا النوع، لا بد له أن يكون محبوباً لدى الجميع ساعياً إلى جلبهم إليه بشتى الوسائل كي يغرس في نفوسهم مبادئه وأفكاره، وهو يلح على هذا ويصرح به بقوله: " يجب علينا كمسلمين مهذبين أن نحمل أعمال الناس محامل حسنة، وأن لا نقابل من عسى أن يسيء إلينا إساءة أخرى، وإلا نحن لسنا برسول الخير، ولا ببرد الرحمة، وبشاعبي القلوب المنكسرة"⁴². انطلقاً من هذا الإيمان العميق والراسخ في نفس محمد المختار فإنه اعتبر الشعر وسيلة فعالة وأساسية لتوطيد صداقاته مع الآخرين، وتعميق جذورها وتمتين دعائمها، فكان لا يترك أي مناسبة تمر دون أن يستغلها في

⁴⁰ الأدب العربي في المغرب الأقصى ج 2 ص 61.

⁴¹ محمد المختار السوسي، محمد خليل، ص 267 وما بعدها.

⁴² الإغيات، ج 3 ص 164.

نظم قصيدة أو مقطوعة يستهدف بها تحقيق هدف من الأهداف التي كرس حياته من أجلها والتي تخلصها قولته الأنفة الذكر.

ب: عامل موضوعي: ومصدره البيئة السوسية التي نشأ فيها الشاعر، وتفتحت فيها موهبته الشعرية؛ ذلك أن شعراء سوس كانوا ميالين إلى المطارحات الشعرية، فيتراسلون بالشعر ويتساجلون بمناسبة أو بدونها، وكانوا يجدون في ذلك مجالا رحبا لتنمية مواهبهم الشعرية، وتطوير قدراتهم في هذا الفن الذي كان يحظى عندهم، وإلى عهد قريب بالمرتبة الأولى من بين ما يتداولونه في بيئتهم من فنون التعبير الأدبي.

لهذين العاملين إذن دور أساسي في غلبة موضوع الإخوانيات على شعر محمد المختار السوسي، وبالتالي في كثرة الأغراض والأهداف التي كان يرمي إلى تحقيقها بقصائده الإخوانية، فبلغت من التنوع والتشعب درجة يصعب معها حصرها تحت عناوين محددة، إلا أنني سأحاول عرض أبرزها.

أشرت إلى هذا الموضوع كان أول ما طرقه محمد المختار في محاولاته الشعرية الأولى؛ تلك المحاولات التي كانت موجهة إلى زملائه في الدراسة من جهة، وإلى شيوخه في تلك المرحلة من جهة أخرى، وهذه بعض النماذج من هذا النوع:

يعد شيخه سعيد التتاني⁴³ واحد من شيوخه الذين ترددت أسماؤهم بكثرة في قصائد محمد المختار الأولى، ذلك أن هذا الشيخ كان زوج أخته وقد أولاه عناية خاصة إثر وفاة والده.

الشيخ علي الدرقاوي حيث تولى تربيته وتوجيهه لسنوات عديدة، وهو الذي ألح عليه في التوجه إلى مراكش لاستكمال تكوينه العلمي، فمن قصائده في هذا الشيخ أورده نموذجا من قصيدة طويلة في أربع وخمسين بيتا خاطبه بها سنة (1340هـ/1921م)، وقد ورد عليه في الغ قادمة من مراكش:

أبارق السفح في جناح الدجى⁴⁴ انتلقا أم الهلال جلا لما جلا الغسقا

أم الغزالة يوم الصحو بازغة فجللت بسنا أنوارها الأفقا⁴⁵

وكان هذا الشيخ ينصحه دائما بقوله: "إنك لو أتقنت علم الأولين والآخرين ثم لم تكن أديبا فلا يكون لك وجه عند الإلغيين، لكن إن أتيتهم بالأدب وجليت فيه فإنك ستنتال من بينهم مكانة مع ما تيسر لك بعد من العلوم الأخرى وإن لم تكن إلا ضئيلة، فأن قطب العلوم عندهم إنما هو الأدب وحده"⁴⁶.

⁴³. ترجم له في كتابه المعسول ج 15 ص 5 . 68.

⁴⁴. الدجى: سواد الليل مع غيم، وأن لا ترى نجما ولا قمرا. لسان العرب لسان العرب، مادة: دجا.

⁴⁵. المعسول، ج 15 ص 55.

⁴⁶. المعسول ج 15 ص 5.

فإقبال محمد المختار على الأدب شعره ونثره، وعمله الدؤوب من أجل النبوغ فيه، كان لشيوخه السوسيين فيه رعاية وتشجيعا وتوجيها كالإفراني والبوزاكاراني والتتاني دور أساسي.

ويبدو لأول وهلة من خلال تأمل النموذج الذي صغته، أنه كان مهتما بجانب الشكل أكثر من اهتمامه بالموضوع في حد ذاته، فهو يختار لشعرها البحور الشعرية ذات النفس الطويل، فهذا النموذج الذي استعرضناه صيغ من البحر الطويل⁴⁷، وأكثر شعره من هذا النوع.

ولما نفي الشاعر إلى مسقط رأسه بـ "إلغ" عمل على التخفيف من وحشة النفي، وتعويض القيود المفروضة عليه في حياته الجديدة، والتي على رأسها منعه من الاتصال بأي شخص ما عدا أفراد أسرته؛ أقول خفف من ذلك باستثارته قرائح شعراء سوس واستدراش شاعريتهم، وهذا نموذج من دالية يجيب بها عن قصيدة ترحيب تلقاها من شاعر إلغي ناشئ هو ابن عمه عبد الله بن إبراهيم، وكان ذلك بتاريخ (12 جمادى الثانية 1356هـ غشت 1937م)، يقول في مطلعها:

أنحن يالغ أم بحومة مريد	أفي كل يوم منشد إثر منشد
أفي كل يوم انتحي بقصائد	مجالاتها ما لا تلامسه يدي
حنانيكم يا آل إلغ فإنني	لأخجل من هذا المديح الممدد
فهل كنت إلا ما علمتم وأين لي	مقامات فرد في العلاء ممجد ⁴⁸

وقد وجد محمد المختار في هذه المحاورات الشعرية الرائجة بينه وبين شعراء سوس وسيلة خرج بها عن وحدته التي فرضتها عليه ظروف النفي، ومع ذلك فلم يملأ كل وقته بهذا النوع من الشعر كما سنرى في الفروع القادمة بل إن له شعرا في المجالات الأخرى عبر فيه عن همومه، وعن تشبثه بمبدئه الوطني الذي نفي من أجله وعن قضايا مختلفة ومتنوعة سنحاول إيرادها في أماكنها المناسبة.

ولما رخص له بالعودة إلى مراكش بعد فترة النفي تلك التي دامت تسع سنوات قال يخاطب الإلغيين مودعا إياهم وهي آخر قافية في "إلغ":

وداعا بني إلغ الكرام وداعا	وإن طار قلبي بالوداع شعاعا
ودعا أخ ما مل إلغ وإنما	أهابت به حمراؤه فأطاعا
وسعتم أخاكم منذ سنين بفضلكم	بحوثا وودا خالصا وطباعا

⁴⁷. البحر الطويل: طويل له دون البحور فضائل فعولن مفاعيلن فعولن مفاعيل.

⁴⁸. الإلغيات ج 1 ص 91.

فقد شهدت هذي السنون بكل ما أفضتم وإن مرت علي سراحا

عليكم جميعا يا كرام تحية كزهر بصبح في الحقائق ضاعا⁴⁹

أما أبنائه فللشاعر في كل واحد منهم أكثر من قصيدة أو مقطوعة، سلك في مخاطبتهم مسلكه في مخاطبة باقي أفراد أسرته فعند مولدهم يبتهل إلى الله أن "ينبتهم نباتا حسنا" وأثناء نموهم يعبر عن فرحته بهم، وهكذا تواكب قصائده مراحل حياتهم المختلفة.

والشاعر في معظم إخوانياته يشعر بأنه يتحول إلى ناظم، لأن ما يصدر عنه في هذا الموضوع ربما لا يلقى التجاوب الكافي عنده وربما يكون في حالة نفسية لا يكون له فيها من الاستعداد ما يحفز عن العطاء الشعري الجيد، ولكنه مع ذلك لا يبالي، فيطلق العنان لقريحته لتتطق بما يجول في خاطره على علاته، وهو يبرر هذا الموقف بقوله: "... وإذا كنت شاعرا يجب عليه أن يزخر بكل ما يشعر به في أوقات الحرج كيفما كان، ها أنذا أعلن ما أجد، وليس علي في ذلك من ملام، ثم لا علي إن أجدت فيما أقول أو لا أجد، لأن المقصود أن أقول لا غير تنفسا"⁵⁰.

الفرع الثاني: إن مساهمة الشاعر في ظهور الحركة الوطنية السياسية كانت مساهمة المؤسس، والمنظم والموجه، حيث عمل إلى جانب نخبة من شباب المدن الكبرى في سنوات العشرين على وضع الدعائم الأولى لهذه الحركة، وكان شعره وسيلة فعالة سخرها في بلورة نضاله الصامد والطويل من أجل نشر مبادئ هذه الحركة، وتحقيق أهدافها.

وقد كان شعره الوطني تصويرا مكتملا لمراحل تطور الحركة الوطنية، من الدعوة إلى مناهضة الجهل والتخلف إلى إثارة حماس الشعب وتوعيته بقضيته الوطنية، إلى تصوير مآسي الشعب وما يعانيه من ويلات وتعسفات المستعمر إلى تشجيعه في كفاحه المسلح ضده، إلى تصوير انتفاضاته وانتصاراته وثناء شهداء الكفاح⁵¹.

كان الشاعر يصف كل هذا في شعره، دون أن يغفل التأكيد على صلة المغرب الوثيقة بالعروبة لغة ودينا وتاريخا، كما صور ما كان يعانيه من التعسف الاستعماري خلال سنوات النفي أو الاعتقال مبرزا إصراره الدائم على عدم تنازله عن مبدئه الثابت وإيمانه الصادق بصواب عقيدته الدينية والوطنية، إذ كان يصر على الربط بينهما ويقول: "لا أزال متمسكا بمبدئي، ومعرضا عن أي قيد وإن كان مذهبا، فأنا مسلم وطني لا سياسي

⁴⁹ الإلغيات، ج 3 ص 220.

⁵⁰ الإلغيات، ج 1 ص 104.

⁵¹ مجلة حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية عدد 2 سنة 1985، ص 65 . 67، جامعة الحسن الثاني، المحمدية.

وطني؛ فوطنيتي من إسلامي، لأن إسلامي من وطنيتي"⁵². قال هذه القولة وهو منفي إلى "إلغ" هو المنفي الذي قضى به تسع سنوات.

ومن أبرز القضايا التي كان الشاعر المناضل يرددها في شعره الوطني:

هذه القصيدة من معتقل الصحراء بتافيلالت، الذي قضى بها الشاعر ثمانية عشر شهرا، حيث تم جمع المعتقلين في مكان واحد بـ "أغبالو نكردوس"، وبهذه المناسبة قال الشاعر قصيدة طويلة في اثنين وسبعين بيتا يصف فيها معنويات المعتقلين القوية ويدعوهم إلى المزيد من التشبث بقضيتهم الوطنية مشيرا إلى شجاعة المغاربة على مر التاريخ وصمودهم المتواصل في وجه الدخلاء، مبشرا بالنصر القريب:

بشرى قد انتظم الياقوت في الجيد ⁵³	أليس يوم اجتماع الشمل بالعيد
اليوم ترقص بالأفراح أفئدة	نشوى ⁵⁴ فترسل من شتى الأناشيد
أمثالنا يا بني التاريخ يخنع ⁵⁵	إن سيم الهوان بتنكيل وتشريد
هل المغاربة الأقحاح يمكن أن	يحنوا الرؤوس اختيارا للمقاويد ⁵⁶
فقد تمزق لكن لن نرى أبدا	نرضى بتقديم عرنين ⁵⁷ لإقليد ⁵⁸
فليعصفوا مثل ما تملي نذالتهم	هل أثمرت قط دفلى ⁵⁹ حلو فانيد ⁶⁰
إن العواصف منهم لا تؤخرنا	بل طالما حفرتنا للمقاصيد
يزداد إيماننا في كل عاصفة	كأنما جددته خير تجديد ⁶¹ .

وهكذا واكب الشاعر في شعره انتفاضات الشعب المتوالية، يصفها يستخلص منها العبر، ويتفاءل بها خيرا بأن يوم الخلاص قريب، فرحا بانتشار الأفكار التي عمل في جملة من إخوانه المكافحين الأوائل على بثها في مختلف الأوساط، فرحته كانت كفرحة الفلاح عندما يجني ثمرة غرسه.

⁵². الإغيات ج 2 ص 188.

⁵³. الجيد: العنق.

⁵⁴. نشوى: سكرى.

⁵⁵. خنع: ذل وخضع.

⁵⁶. المقاويد: ج مقود، وهو ما تقود به الدابة.

⁵⁷. ما فوق الأنف، وقد يطلق على الأنف كله.

⁵⁸. البرة التي تجعل في أنف البعير ليقاد منها.

⁵⁹. دفلى: شجر معروف.

⁶⁰. فانيد: يصنع من السكر وهو معروف.

⁶¹. معتقل الصحراء ج 1 ص 81.

وقد آمن الشاعر بالعروبة إيمانهم بوطنه، فدافع عن اللغة العربية، فاعتبرها رمزا للمغرب الموحد ذي المجد العريق، اللغة العربية لغة القرآن الذي هو: نور الدين الإسلامي، وليس هناك تمييز بين الوطنية الحققة، والإسلام؛ فالتفريط في الإسلام تفريط في الوطن، والتفريط في اللغة العربية، تفريط في الإسلام فهذه المقومات الثلاثة مترابطة ومتماسكة وكل من يحاول الفصل بينهما هو على عكس إيمانهم وعقيدته⁶².

من هذا المبدأ أفنى الشاعر حياته في العمل على الرفع من شأن اللغة العربية، التي يعتبرها في نفس الوقت رمزا لوحدة الشعوب العربية، فالمغرب هو جزء من العالم العربي، ووحدة العالم العربي مرتكزة على عنصرين أساسيين: هما الدين الإسلامي واللغة العربية.

ومن قصائد الشاعر في هذا الموضوع قصيدة ألقاها في نادي من الأندية العربية بفاس في سنوات العشرين أيام دراسته بجامعة القرويين يوضح فيها أن اللغة العربية ستصمد أمام العواصف وستخرج من المعركة منتصرة بفضل حماية أبنائها الأوفياء لها، رغم كيد الكائدين ويتعهد بأنه سيكون في مقدمة هؤلاء الذين يعملون على حمايتها بكل ما يملكون من إمكانيات علمية وفكرية منها:

بني فكريتي بني الوئام بني الحجا⁶³ بني النظرة العليا بني اليقظات
وجدتهم فعضوا بالنواجذ واثبتوا فلن ندرك العليا بغير ثبات
ففي اليوم سادت فكرة يرتجي بها صلاح إذا ما أبدت بثقات
وعين الصلاح في حياة لغاتكم فيسرى بها للشعب كل حياة⁶⁴

هذا بإيجاز عن الشعر الوطني لدى السوسي، وهو شعر ظهر عنده لما اشتد عوده في الأدب ولما احتك بصفوة من شباب مدينة فاس، رواد الحركة الوطنية، وكان الشاعر أثناء وجوده بهذه المدينة في الخامسة والعشرين من عمره، وكان حينئذ حديث العهد نسبيا بالحوضر، ومع ذلك فهو سرعان ما اعتنق الفكرة وتشبع بها بل كان في مقدمة الدعاة لها، مما أهله لتولي رئاسة جمعية الحماسة الثقافية التي تفرعت عنها أول جمعية سياسية سرية نشأت بالمغرب، في منتصف سنوات العشرين.

وهو مع كل هذا حريص أن يظل كفاحه في صمت، ويرفض كل تمجيد بأعماله أو ثناء عليه، ملحا بأن: وطنيته من إسلامي لأن إسلامه من وطنيته، مبرهنا في ذلك عن إيمانه العميق بمبادئ الدين الإسلامي التي

⁶². محمد المختار السوسي لمحمد خليل ص 316.

⁶³. الحجى: إضافة الشيء بالشيء وملازمته. لسان العرب، مادة: حجا.

⁶⁴. الأدب المغربي في المغرب الأقصى، ج 2 ص 63.

لا تفصل بين العمل للدين والعمل للدنيا، بل تعتبر كل عمل يهدف إلى الخير والنفع عبادة، لا فرق في ذلك بين ما فيه نفع شخصي أو نفع عام.

ووطنياته تتميز لكونها من شعره الجيد بصفة عامة، وربما يرجع ذلك إلى التعاطف الخاص الذي يجده الشاعر مع قضايا هذا الموضوع أكثر مما يحس به في غيره من الأغراض، ولا غرابة في ذلك، فالشاعر عاش حياته ملتزما في وطنياته وفي تلميذياته التي سنتعرف عليها في الفرع الموالي.

الفرع الثالث: التلميذيات.

المقصود بالشعر "التلميذيات" مجموعة من القصائد والمقطوعات التي كان الشاعر يقولها في تلاميذه، حينما كان مقيما بمراكش خلال سنوات (1348. 1355هـ 1929_1937م)، وهي الفترة التي قضاها هناك في التدريس، والتربية والإرشاد والتوجيه فضلا عن نضاله الوطني الهام.

ولقد بلغت هذه الآثار الشعرية من كثرة ما جعل الشاعر يجمعها في ديوان خاص سماه "الرميليات".

وقد قام الشاعر بدور إيجابي فعال بمراكش، هذا الدور الذي كان يدخل في إطار تنظيم محكم وضعه رواد الحركة الوطنية في ذلك الوقت، حيث أنيط بالشاعر تحريك مهمة مراكش علميا وفكريا ووطنيا.

وسعيا إلى تحقيق هذا الهدف فتح الشاعر مدرسة "الرميلة" التي كانت في الأصل زاوية الطريقة الدرقاوية أسسها والد الشاعر الشيخ هذه طريقة المشهور في النص الجنوبي من المغرب على الأخص، وإنشاء الشاعر لهذه المدرسة، وطريقته في تعليم تلاميذه بها اكتست صيغة خاصة وفريدة نالت إعجاب الجميع ولاسيما كبار رجال الحركة الوطنية، إذ كان من أبرز ما تميزت به:

هذا الجو الأدبي الحماسي الفريد من نوعه، والذي أضفاه عليه الشاعر، وكانت التلميذيات من أبرز ثماره، حيث كان الشاعر يرمي من وراء هذه القصائد إلى تحقيق جملة من الأهداف منها⁶⁵:

1. استنهاض همم التلاميذ الناشئين وترغيبهم للسير حثيثا في مدارج التحصيل والتعلم، ونشر

روح المنافسة العلمية البريئة بينهم.

2. بث الروح الوطنية في نفوسهم مبكرا حتى يشبوا على حب الوطن والعزم على النضال من

أجل تحريره من الاستعمار المهيم عليه.

⁶⁵ . المختار السوسي الذاكرة المستعادة: أعمال الندوة التي نظمها اتحاد كتاب المغرب بتعاون مع المجلس البلدي لمدينة أكادير أيام 21 . 22 . 23

دجنبر 1984، ص 154.

3. تقويم الاعوجاج الذي يلمسها في أفراد منهم، سلوكاً وتعلماً واجتهاداً، والعمل على إصلاحهم بطريقة تربوية معينة تجعل التلميذ يعترف بذنبه ويتعهد بالكف عما شغله عن الدراسة أو انحراف به عن طريق السوي.

4. غرس وتنمية ذوقهم الأدبي ورصيدهم اللغوي إقتناعاً منه أن الشعر وسيلة فعالة في القدرة على التأثير على الآخرين ولذلك حرص على رعاية مجموعة من تلاميذه الذين لاحظ فيهم ميلاً إلى الأدب فتولاهم بالرعاية والتشجيع حتى أظهر موهبتهم الشعرية، فصقلها ونماها، وبهذه الطريقة تخرج على يده عدد مهم من الشعراء الذين نالوا شهرة في الساحة الأدبية خلال سنوات الثلاثين والأربعين⁶⁶.

ويبلغ عدد قصائد ديوان "الرميليات"⁶⁷ حوالي الخمسين، تكون في مجموعها رصيذاً شعرياً في أزيد من خمسين وسبعمائة بيت (750)، ويمكن تصنيفها إلى قسمين:

قصائد كان الشاعر يقولها على ألسنة تلاميذه؛ فالشاعر ينظم القصيدة على لسان التلميذ الذي يؤمر بحفظها، وشرحها وتحليلها حتى يتعرف على معناها لغوياً وأدبياً وكان التلاميذ يتسابقون ويتنافسون ليحضوا من أستاذهم من قصيدة من هذا النوع، لأنهم يعتبرونها مكافأة من الأستاذ للتلميذ في الوقت الذي كان الأستاذ يعتبرها وسيلة تعليمية تثقيفية بالدرجة الأولى.

وكان الشاعر يطلق على هذه الحلقات العلمية الأدبية التي كانت تلقى في مجلس خاص بعقد يوم الأربعاء من كل أسبوع "سوق عكاظ"، تيمناً بهذا الموسم الأدبي المعروف في العصر الجاهلي، والذي كان مناسبة لإلقاء الشعر تيمناً كذلك بالشعراء الجاهليين الذين كانوا يتبارون فيه حتى تسير تلك المواهب الفنية المنفتحة على سننهم فتصبح ذات شأن عظيم في عالم الأدب حينما تنضج وتتمرس وتعبد لنفسها الطريق في عالم الإبداع الشعري.

ويكون التلاميذ الذين يلقون قصائدهم في مجلس يوم الأربعاء مستعدين لمناقشة الحاضرين في مضامين قصائدهم في تلك، وخاصة من الناحية اللغوية الأدبية فعليهم أن يجيبوا الحاضرين على أسئلتهم ويحاوروهم في معاني الأبيات، وفي القضايا اللغوية والفكرية التي تطرحها وهنا تكون الدراسة التحضيرية التي يقومون

⁶⁶. من هؤلاء: محمد الوديع الأسفي، والحسن التتائي، ومحمد الروداني، وعرفة الفاسي، كما أخذ عنه عبد القادر حسن في فترات متقطعة.

⁶⁷. الديوان لا يزال مخطوطاً بيد أن الشاعر أورد مجموعة مهمة من قصائده في كتابه الإلغيات ج 3 ص 145 . 165.

بإعدادها قبل المثل أمام الحاضرين والرد على أسئلتهم الدقيقة العميقة والمحرجة في كثير من الأحيان سعياً إلى التعرف على مدى تقدمهم العلمي بصفة عامة واللغوي الأدبي بصفة خاصة⁶⁸. وهذا النموذج من هذا القسم:

يقول في تلميذ اسمه سعيد منو في سرد ما حصله التلاميذ في سن مبكرة مخاطباً زملاءه بمفاخره العلمية التي يضيفها إلى ما ورثه من مفاخر وأمجاد أسرته، ذلك أن أباه كان باشا مدينة مراكش في عهد كل من السلطان مولاي عبد العزيز والسلطان مولاي عبد الحفيظ ومع ذلك فالتلميذ يلح على أنه لا يكتفي بهذا الإرث بل يريد أن يحقق لنفسه مجداً آخر أسمى ذلك هو مجد العلم وشرف والمعرفة وهو مجد أن يتمتع به وحده فحسب بل سيضاف ذلك إلى أمجاد أسرته الأنفة الذكر:

فما فخري فخر الجدود وإنما	فخاري بما أحرزته يوم صممت
ألا فليزیدن آل منو لفخرهم	فخاري الذي شيدته يوم علمت
فإن نال منو بالحسام تقدما	فبين طروسي والبراع تقدمت
وإن حاز منو بالبسالة مجده	فبالدرس في علياء المجادة أُلِّمت ⁶⁹

وفي هذه القصائد ينحوا التلاميذ مناحي شتى في افتخارهم بأنفسهم، فهم أحيانا يتشبهون بمشاهير العلماء والأدباء، وأحيانا يذهبون إلى القول بأنهم عازمون على خدمة شعبهم، مصممون على العمل من أجل النهوض بأمتهم حتى تقف في مصاف الدول الراقية، وهنا نجد الشاعر يستغل هذه القصائد للتعبير عن مشاعره الوطنية، والتزامه بقيامة بواجبه من أجله، وإبراده لها على السنة تلاميذه تحقيقاً لذلك الهدف الوطني.

قصائد كان يخاطبهم بها؛ وهي قصائد تسيير على غرار قصائد القسم الأول سواء من حيث الموضوعات أو من حيث الأهداف.

ويمكن اعتبار الفرق الموجود بين القسمين، أن الشاعر في القصائد الأولى كان يتوجه إلى صغار التلاميذ فينظم القصائد على ألسنتهم مشجعا حينا ومعاتبا حينا آخر، وذلك في لغة قاموسية متينة تعمد فيها الشاعر تلقين تلاميذه رصيда لغويا من شأنه أن يساعدهم على تعميق محصلهم في هذا الجانب، وبالتالي تيسير استعماله في حياتهم الدراسية.

⁶⁸ المختار السوسي لمحمد خليل ص 340.

⁶⁹ . المختار السوسي الذاكرة المستعادة ص 157 . 158.

في حين أن قصائد القسم الثاني كانت تخاطب كبار التلاميذ تحقيقا لنفس الأهداف في مجال التشجيع والعتاب بصفة خاصة، إضافة إلى أن قسطا مهما من قصائد هذا القسم كان يصدر عن الشاعر جوابا عن أخرى وكان تلاميذه الشعراء يخاطبونه بها اعترافا بمخالفات ارتكبوها، أو توبة من انحرافات انساقوا إليها، أو تمجيذا وتقديرا لجهوده التي كان يبذلها في مختلف الأنشطة الفكرية والاجتماعية والوطنية والتي يقوم فيها بأدوار أساسية. وكانت هذه القصائد تلقى بدورها فياللقاء الأدبي الأسبوعي الأنف الذكر.

فمن قصائد التشجيعية: هذه الدالية التي خاطب بها ابن أخته محمد بن سعيد التتاني، حيث أبرز فيها إعجابه بذكائه الحاد، الذي أهله للحصول على نتائج فائقة في طلبه للعلم، مما سيؤهله للحفاظ على مجد أسرته العلمي، فأبوه عالم وأديب ومتصوف، وأمه . أخت الشاعر. من بيت علم وأدب وتصوف كذلك:

محمد بن سعيد	خير فتى مستفيد
تعلم العلم حتى	جرى لشأو بعيد
فهو إن كان طفلا	كذي مقام عتيد
ذكاءه في ازدياد	يقول هل من مزيد
فمن يكن جزله ⁷⁰ من	عائشة وسعيد
يصل مقام الثريا	بجده والجدود
يحفظه الله حتى	يكون سعد السعود
فيهتهدي بهداه	أهل الربا ⁷¹ والوهود ⁷²

ويخاطب تلاميذه أحيانا منوها ومشجعا، لكن لا يغفل تنبيههم إلى ما يلمسه في سلوكهم من ثغرات، كقوله في السعيد الوزاني:

أنت السعيد ولن تكون سعيدا حتى تكون لما قرأت مفيدا⁷³

أما في قصائد العتاب: فيجد الشاعر نفسه مضطرا إلى إبداء تخوفه عن مستقبل تلميذه العلمي؛ إما لانصرافه عن الدرس، أو لانشغاله بأمور لا تتفق وما يرفضه عليه طور التحصيل من الكد والجد، أو لميله إلى سلوك تحف به شكوك يخشى الشاعر أن يؤدي لتلميذه إلى الانحراف؛ فحينما يلمس شيئا من ذلك في أحد من تلاميذه،

⁷⁰. الجزل: الحطب اليابس، ورجل جزل الرأي جيده. لسان العرب، مادة: جزل.

⁷¹. الربا: ربأت الأرض رباء؛ زكت وارتفعت. لسان العرب مادة: ربا.

⁷². الإلغيات، ج 3 ص 64.

⁷³. الإلغيات، ج 3 ص 153.

يبادر إلى تنبيهه أو تأديبه، وحثه عن التخلي عن سلوكه الطائش والرجوع إلى طريق الصواب، مبينا مخاطر السلوك غير السري الذي سينحرف به إلى الهاوية داعيا تلميذه إلى الاتصاف بما عهده فيه من قبل من استقامة واجتهاد قبل أن تفوته الفرصة.

ولعل أشهر قصيدة صدرت عن الشاعر في هذا الباب، ميمية تعد إحدى مطولاته الشعرية بصفة عامة، هي في تسعة وسبعين بيت⁷⁹، خاطب بها تلميذه علي ابن المعلم المراكشي يقول في آخرها:

أبا حسن مهلا لتسمع كلمة لدي وأما شئت من بعد فاصرم⁷⁴

تريث قليلا واستمع لنصيحتي أليس بعار نبذ نصح المعلم

رويدك لا تغلط فأعظم غطة لمثلك أن يرتد بعد التقدم⁷⁵

ويختم قصيدته بمجموعة من المواعظ والحكم تذكرنا بحكم زهير بن أبي سلمى في معلقته:

ومن لم يواظب حقبة بعد حقبة فهيهات أن يجني ثمار التعلم

ومن لم يهب للعلم كل حياته فلا يطمعن منه بحبة سمس

ومن لم يخاطر في المعالي بنفسه فكيف يرى فيها له من تقدم

إذ كان ماء من قليب ولم تكن دلاء⁷⁶ أترجو منه كركك بالفم

وهذا النوع من الشعر كثير في رميلياته: شعر العتاب والتأنيب والدعوة للرجوع إلى سالف العهد في الكد والجهد والمثابرة. ويظل الشاعر في رميلياته، ذلك الأستاذ المخلص في أداء رسالته التربوية والتعليمية، المنتبج لأحوال تلاميذه المطلع على أسرارهم ومشاكلهم مشاركا إياهم في سرائهم وضرائهم، فيزور من مرض منهم، ويواسي من أصيب منهم بإحدى مكربات الحياة فيعزي أو يواسي بقصيدة يضمنها مشاعره وعواطفه وأحاسيسه نحو تلميذه.

ومن هذه القصائد ما قاله في مولاي الحسن بن مولاي عبد الحفيظ، وقد ألم به سقم، فلم يتمكن من عيادته في فراش المرض بناء على تعليمات الطبيب، طالبا منه الإسراع بالإجابة عن كتابه حتى يطمأن عن صحته:

قد كنت أنوي عيادات فحرمها أمر الطبيب وأمر الطب محترم

فنا ب عن خطوات ما بعثت به ونعم ما يستنيب العاجز القلم

⁷⁴. الصريمة: العزيمة على الشيء، والرجل الصارم؛ الماضي في الأمور كالسيف الصارم. معجم مقاييس اللغة، مادة: صرم.

⁷⁵. المختار السوسي الذاكرة المستعادة ص 163.

⁷⁶. ج دلو: التي يستقى بها. لسان العرب، مادة: دلا.

اقرأ الكتاب وأرسل لي الجواب فلي شوق شديد لأدري هل مضى الألم⁷⁷

وحينما تطول غيبة أحدهم، يبادر الشاعر إلى السؤال مستفسرا عن أخباره، مستطلعا عن أحواله: كقوله في تلميذه سالم الرحماني ذلك سنة (1933/1352م):

كيف أنت وكيف حالك كيف أنت عندي من أحسن الناس وصفا

أنت شهم والشهم يسبق في الميدان يجني الأقمار يقطف قطفا⁷⁸.

ومن أبرز ما تناولته الشاعر في هذا الموضوع من قصائد الرمليات، قصائد يرشد فيها الأستاذ تلاميذه الذين تصدر عنهم محاولات أدبية أولية، قد لا تخلو عامة من ثغرات، فيهما الأستاذ على تنبيه تلميذه إلى ذلك وحثه على العمل للوصول إلى الهدف المنشود، وذلك بإرشاده إلى جوانب النقص في إنتاجه الأدبي مشجعا إياه ليستمر في صقل موهبته، وتقويم لسانه وقلمه حتى يحصل على النتيجة المرجوة. من ذلك متألفة التلميذ سالم الرحماني خطبة طنانة يوما في محفل وهي بإنشائه، كتب عليها الأستاذ هذه الأبيات تشجيعا له:

كذا فليخط النثر من كتبنا وليبدل النصح للإخوان من خطبا

والعقل يظهر في شئين رونقه في النطق إن قال أو في الكتب إن كتبنا

من يحسن الشيء لا يعدم جوازيه هيهات يذهب سعي المحسنين هبا⁷⁹

ونختم الجوانب البارزة في قصائد القسم الثاني من ديوان الرمليات بهذا الجانب الذي يعد الشاعر فيه نفسه قد أدى الأمانة وبلغ الرسالة، حينما أينعت الثمار التي غرسها، وذلك ببلوغ المواهب الأدبية التي رعاها سنين عديدة إلى المكان اللائق بها في ميدان الشعر والأدب، وسارت تخاطب أستاذها ليس لقصائد أنشدها هو على السنة هذه المواهب، وإنما سارت تخاطبه لقصائد هي وليدة قرائحها المشبعة بعلم وأفكار أستاذها.

وهكذا تصل فرحته ببلوغ تلاميذه إلى الأوج حينما يراهم يتألقون في عالم الأدب والشعر خاصة وجريا على عادته في إنهاض الهمم أردف قطعهم بهذه القصيدة التي تظاهر فيها بأنه ألقى إليهم راية الشعر تشجيعا لهم على ما أراد من استكمال شاعريتهم وثناء على همهم، ويختم هذه القصيدة الطويلة البالغة اثنين وسبعين بيتا بقوله:

فها أنذا قسرا تسلم عندكم يدي وكذاك الشيخ يؤخذ بالقهر

وأحنو لكم رأسي وأطرق عندكم برغمي كذا الأقدار في سيرها تجري

⁷⁷. الإلغيات ج 3 ص 157.

⁷⁸. الإلغيات، ج 3 ص 145.

⁷⁹. الإلغيات، ج 3 ص 145.

هنيئاً مريئاً أيها النشء فامرحوا كما شئتم أعلين مرتفعي القدر
فما ضرركم حدثان السن إذا انتحت بكم همم شماء⁸⁰ للرتبة البكر
وأما نظيري فليقل رغم أنفه سلام على الدنيا سلام على الشعر⁸¹

على أن الذي تجدر الإشارة إليه أن شعر التلميذيات ينح فيه الشاعر - من حيث صياغته - منحي مشاهير شعراء العربية في العصر الجاهلي أو الأموي أو العباسي، وذلك في اختيار أسلوب متين غني بعبارات وألفاظ الهدف منها تزويد الطالب برصيد لغوي أصيل، وجعله يتذوق جمال اللغة العربية وبلاغتها، وتشويقه إلى طلب المزيد، توسيعاً لمداركه وتنويعاً لتكوينه وذلك على خلاف شعره الذي يتناول فيه موضوعات أخرى، وخاصة في شعر الإخوانيات الذي يغلب عليه الارتجال في القول حيناً أو التكلف حيناً آخر.

الفرع الرابع: الوصف

إن وطنيات محمد المختار - مثلاً - زاخرة بالوصف، ففيها وصف لأحوال الوطن وما يعانيه من بطش المستعمر، وفيها وصف لمواقف الوطنيين النضالية، ولما يقاسونه من ويلات، نتيجة تمسكهم بمبادئهم تلك، فهو - مثلاً - في هذه الأبيات يصف صموده اتجاه لما لقيه من المستعمر الذي نفاه عن مراكز سعيها منه إلى منعه من أداء رسالته:

كم من مصائب لا يقر لها الحليب م تقضى منه في المضاجع جانباً
يمسي ويصبح في هموم لم تكن لتغادر الجلود الا ذائبا⁸²

ولقد تعددت مجالات شعره الوصفي، وانطلقت شاعريته بغزارة وسنحاول حصر أهمها فيما يلي:

1 . وصف إلغ طبيعتها عاداتها مأكولاتها

2 . وصف الطبيعة أماكن مجالس نزهة

3 . مجالات أخرى

فقد أصبح الشاعر يوماً في إلغ في فصل الشتاء سنة (1356هـ/1937م) فإذا "بسيط إلغ" بجباله يميم في رحلة بيضاء من الثلج البراق⁸³ فقال قصيدة يصور فيها جولته في صباح ذلك اليوم الذي اكتست فيه إلغ رحلة شتوية رائعة:

⁸⁰ الشم: ارتفاع في الأنف. المعجم لابن فارس، مادة: شم.

⁸¹ محمد المختار السوسي، ص 512 . 514.

⁸² . الإلغيات، ج 3 ص 101.

⁸³ . المعسول، ج 1 ص 67.

ماذا رأى من لم يكن بالرأي ثلجا يشع بلونه الوضاء

لا سيما أن عم حتى لا ترى من لمعة في سائر الأرجاء

فالأرض قي بياض أديمها⁸⁴ من فعل تساقط الثلج اكتست حلة قشبية تختال فيها اختيال العروس قي لباس يوم الزفاف الأبيض:

والأرض من أثوابه مياسة ميس العروس بحلة بياض⁸⁵

وصف مأكولات الإلغيين: فمن ذلك ما وصف به الأكلة الشعبية "العصيدة" قي قصيدة طويلة تقع في أزيد من سبعين بيتا (70)، ألم فيها بكل ما يتصل بهذه الأكلة من مرحلة إعدادها إلى طريقة أكلها، وأفاض في وصف لذتها فضلها على المأكولات الحضرية الفاخرة رغم بساطتها:

لمن جفنة⁸⁶ قد أقبلت تتألق تلوح بلأل العصيدة يبرق

مسمنة حتى كان سنامها شماريخ⁸⁷ طود⁸⁸ لم يكن يتسلق

وقد عمت شهرة هذه القصيدة الرائعة التي صدرت عن الشاعر سنة (1356هـ/1937م) سائر الأوساط الأدبية في سوس، فتناولها كثيرون بالشرح⁸⁹، خاصة وأنها مشحونة بسيل من العبارات والتراكيب المتينة التي يتطلب فهمها الرجوع إلى معاجم اللغة، وإلى أساليب القدماء لإدراك المدلول الحقيقي للأبيات، وقد عرف عن الشاعر أنه كان يعتمد- وخاصة في مرحلة النفي إلى إلغ- استعمال أساليب من هذا النوع مجارة لشعراء سوس الذين كانوا يعجبون بالقصيدة ويقدرونها بقدر ما يتألق صاحبها في غريب اللغة ومتمين التعبير⁹⁰.

ولم يقتصر وصفه على المجالين السابقين، بل شمل كثيرا من الجوانب المتعلقة بحياته⁹¹. ونحاول أن نلم في ختام هذا الفرع بنوع من الوصف شغل حيزا مهما من شعر هذا الموضوع عنده، ونسميه الوصف الفكاهي، أو الوصف الطريف، ونعني بذلك مجموعة من القصائد التي خصصها لوصف مواقف خاصة، فأضفى عليها من نفسه المرححة مسحة من الطرافة والهزل، رغم أن مناسبة بعض هذه القصائد تقتضي الجد، كهذه القطعة التي

⁸⁴. الأديم: الجلد، وهو مستعار هنا. لسان العرب، مادة: أدم.

⁸⁵. المعسول، ج 1 ص 67.

⁸⁶. الجفنة: معروفة؛ أعظم ما يكون من القصاع، والجمع جفان. لسان العرب، مادة: جفن.

⁸⁷. الشماريخ: رؤوس من الجبال، من شمع إذا على. المعجم لابن فارس، باب ما جاء من كلام العرب على أكثر من ثلاثة أحرف وأوله شين.

⁸⁸. الطود: الجبل العظيم، ابن فارس.

⁸⁹. تولى هو نفسه شرحها في كتاب بعنوان: تأثرية في شرح قصيدة العصيدة، وهو لا يزال مخطوطا.

⁹⁰. محمد المختار السوسي ص 354 . 355.

⁹¹. أدرج أبرزها في وطنياته باعتبارها تصور ما كان يعانيه بصفة خاصة في المنافي التي عاش فيها سنين طوالا.

وصف فيها ليلة عرس قضاها بـ"الرحامنة" سنة (1355هـ/1936م)، فطاف به البرغوث وحرمه من النوم، وتصور الأبيات ما عاناه في تلك الليلة وصفا دقيقا، أظهر فيه براءته في الوصف، فوخز البرغوث لم يسلم منه أي جزء من الجسم من مفرق الرأس إلى أخصص القدمين، بل غزا العينين والأذنين كذلك، مما حمل أظفاره على ألا تتوقف عن الحك طيلة الليل حتى كادت تسلخ البدن:

يا للرجال لبرغوث ألم بنا	وخزا كما شك قرن قرنه بقنا
من مفرق الرأس للأقدام مصنعه	لم يحترم جفن لا ولا أذنا
بتنا وأظفارنا أظفار ذي جرب	حكا نكاد به أن نسلخ البدنا
جنبنا لجنب سهرنا في مضاجعنا	كأننا نتلقي من تمللنا
ما ليل أرمد ⁹² إلا ليل ذي عرس	في ليل من بات بالبرغوث ممتحنا ⁹³

وفي معتقل " إغبالو نكردوس" خاطب المكلف بتوزيع الغذاء بقصيدة يحتج فيها على سبب استمراره في تخصيص حصته هو ورفيقه بالعظام بدل اللحم، وهو احتجاج أتى على إثر إصرار المكلف على توالي إعطائهم الأكوام تلو الأخرى منها، وجاء الوصف دقيقا ومحيطا بالحالة التي يعاني منها هو وصديقيه:

أفي كل يوم حظنا من أضالع	فكم كان في مذبحكم من أضالع
أتعزل عن عمد فتأتي نصيبنا	على كل يوم كومة من أضالع
أيسمع الإخوان طرا جميعهم	بلحم ونعطى وحدنا من أضالع
فقد مر يوم ثم يوم فثالث	ولسنا نرى إلا عظام الأضالع
ولو كان بعض اللحم فيها وجدت	ما أقول ولكن مرققة بالأضالع
ألا يا عباد الله هل مقسط فقد	ضجرنا وأعيننا من أكل الأضالع
فإن اشتداد الشوق للحم هاجنا	إلى أن تمشمشنا صلاب ⁹⁴ الأضالع ⁹⁵

وهكذا نجد وصف محمد المختار السوسي شاملا لمختلف جوانب حياته الخاصة منها والعامة، المشرفة منها والمؤلمة، الصافية منها والحالكة، وهو شعر لا يخلو من نكهة، ومن شاعرية، رغم أنه ينح فيه منحى الأقدمين - شأنه في سائر شعره - وذلك على غرار ما نجده في شعر أصحاب مدرسة البعث في الشرق العربي، وخاصة

⁹² الرمد: رمد العين، ومنه الرمد: وهو الهلاك، ويقال رمدنا القوم نرمدهم، إذا أتينا عليهم. ابن فارس، مادة: رمد.

⁹³ خلال جزولة، ج 3 ص 89.

⁹⁴ صلب: الصاد واللام والباء أصلان: أحدهما يدل على الشدة والقسوة، والآخر جنس من الودك؛ أي ودك العظم. ابن فارس مادة: صلب.

⁹⁵ معتقل الصحراء، ج 1 ص 132.

شوقي وحافظ، فهو يدعم وصفه بتشبيهات لا تخرج عما هو مألوف في الشعر القديم، إلا أن تلك التشبيهات تنسم في معظمها بغفويتها وتلقائيتها فتضفي على هذا الشعر مسحة الجمال الشعري الذي يصوغه الشاعر في أسلوب تتماسك فيه العبارة في أكثر الأحيان، وتترابط في ترتيب للأفكار لا يشوبه أحياناً إلا إقحام مفردات قل استعمالها في الأسلوب الحديث، وهذا راجع إلى ما كان الشاعر يحرص عليه من صوغ شعره في أسلوب يحيي به أسلوب كبار الشعراء العباسيين والأندلسيين بصفة خاصة⁹⁶.

الفرع الخامس: تأملات وخواطر

لا يشغل الشعر الديني حيزاً في شعره مما جعلنا نعتبر ما ورد عنه في هذا الجانب مجرد خواطر أو تأملات اقتضتها ظروف معينة، تشبه الحالات التي تدفعه إلى التعبير عن مواقف أخرى في الحياة فيبدي فيها رأيه، أو يفوه بأقوال يمكن أن تجري مجرى الحكمة.

ومواقف من مثل هذا النوع كثيرة عند الشاعر يتجلى فيها رأيه الرصين الذي جاء نتيجة احتكاكه بالحياة في مختلف وجوهها وهو الرجل الذي خبرها وعانى من صروفها وتقلبها الشيء الكثير.

وفي هذا الفرع سنحاول عرض هذا الجانب من شعره، وسنحصره في الفقرات الآتية:

1 . ابتهالات صوفية

2 . أقوال تجري مجرى الحكمة

3 . خواطر في الكتاب والقلم

4 . تأملات في عادات وتصرفات.

على أننا لا أزعم أنني تفصيت كل ما تناوله الشاعر في هذه الموضوعات، لما يتطلب ذلك من بحث خاص، ولكنني أريد إلقاء بعض الضوء فقط على هذا الجانب حتى تتضح الصورة

1 . ابتهالات صوفية: مما يلفت الانتباه أن أول قطعة صدرت عن الشاعر - وهو يحاول قرض الشعر

- كانت قطعة دينية افتتحها بقوله:

الله أكبر وهو الرحمن الرحيم وهو السميع الخلاق القادر العليم⁹⁷

⁹⁶ . محمد المختار السوسي، ص 364.

⁹⁷ . المعسول، ج 7 ص 237.

وكان في ذلك الوقت في ذلك الوقت تلميذا بمدرسة "إيغشان" إحدى قبائل إلغ، وعمره لا يتعدى إحدى عشرة سنة، بيد أن الشاعر انصرف بعد ذلك إلى الأغراض الأخرى، يصور فيها مشاعره وأحاسيسه في الوقت الذي لا تأتي فيه القصائد الدينية إلا نادرا وفي فترات متقاطعة ومتباعدة.

وشعره في هذا الموضوع -رغم قلته- متنوع: ففيه دعاء، وتوبة، وتضرع إلى الله سبحانه أن يكون معينه ومغيثه، وفيه كذلك خشوع قوي، وإيمان راسخ.

ففي هذه القصيدة التي صدرت عنه في الأيام الأولى من النفي إلى إلغ يبتهل الشاعر إليه سبحانه أن يخفف عنه وطأة المصيبة التي نزلت به لما أبعد عن تلاميذه وأصدقائه الأصفياء الذين كانوا يشاركونه في أداء رسالته الدينية والثقافية والوطنية:

من ذا أنادي سواك ربي	جدواك حسبي جدواك حسبي
قد ضاق صدري وعيل صبري	وكاد غما يرفض ⁹⁸ قلبي
فأين عزمي بل أين حلمي	وأين فكري بل أين لبي
فها أنذا قد استحالت	نفسى لصلد ⁹⁹ في القفر صلب
تكفنتني أيدي الرزايا	وصاد متني بكل خطب
وليس لي معقل حصين	سوى خنوعي لديك ربي
فمنك لطف عودتنه	متى اعتراني ملم كرب ¹⁰⁰

2. أقوال تجري مجرى الحكمة:

كان لنشأة الشاعر الأولى تأثير قوي في تكوينه وتوجيهه، ذلك التوجيه الذي طبع سائر أطوار حياته بطابع الإرشاد والنصح والقوة الحسنة، شعاره دائما الجهر بالحق والدفاع عنه سواء في الدين أو في السلوك والمعاملة اليومية، أو الوطنية، وهو الذي قال في شرح شبابه:

الحق حق وفيه	أحيا وألقى الحماما ¹⁰¹
فإن أعش فمحق	و إن أمت فسلاما

⁹⁸. ترفض الدمع: سال وتفرق وتتابع سيلانه وقطراته، والرفض: الشيء المتفرق. لسان العرب، مادة: رفض.

⁹⁹. صلد تدل على الصلابة واليبس، ومنه الرأس الصلد الذي لا ينبت شعرا. ابن فارس، مادة: صلد.

¹⁰⁰. الإلغيات، ج 1 ص 214.

¹⁰¹. الحمام: قضاء الموت وقدره، لسان العرب، مادة: حمام.

حسنت ربي الختاماً¹⁰²

وما أبالي إذا ما

3 . خواطر في الكتاب والقلم:

تعتبر الكتابة الأداة الوحيدة التي تخلد بها الأجيال إنتاجها الفكري والعلمي والحضاري لتنتقله إلى الأجيال القادمة فبدون الكتابة لن يتمكن الأحفاد من معرفة تاريخ الأجداد ولن يستطيعوا الاستفادة من تجاربهم في الحياة وكان يأخذ على المغاربة عامة عدم اعتنائهم بتدوين تاريخهم وحضارتهم وتسجيل أعمال وتراجم رجالاتهم مما جعل الكثيرين من هؤلاء الرجال ينسون ويهملون بمجرد وفاتهم فتفقد الأمة نتيجة هذا التفريط جزءا مهما من تراثها ومن معالم شخصيتها ومقوماتها

ويرى في المطالعة قمة سعادته فيكرر ذلك في كل مناسبة فيها ترتقي النفس وتكتمل شخصية العالم:

إن الأمانى أشتات مفننة والعلم كل أمانى العالم الراقي¹⁰³

فمن له لذة في العمر واحدة ففي المطالعة جميع لذاتي¹⁰⁴

ولا حياة له بدون الكتاب ففيه يجد كل ما يحتاجه من سعادة ونس واستعانة على تحمل الصعاب وفي ذلك:

كتبي فلا عيش لي من دونها أولم تدروا بان ليس إلا الكتب ملتحي¹⁰⁵

فالكتب سؤلي وآمالي ومنتعشي وانس قلبي ومنها وحدها جلدي

فحبها خامرت مي بشاشته ما كان بين شراييني وفي غددي¹⁰⁶

بها مزاجي وتمييزي فان ذهبت تذهب بتمييز ما باليوم أو بغد¹⁰⁷

4 . تأملات في عادات وتصرفات:

اشتركت عوامل بيئية وتربوية متنوعة في تكوين شخصية الشاعر مما نجد له تأثيرا واضحا على سلوكه وفي نظرته إلى القيم والعادات السائدة في مجتمعه.

فهو ابن بادية وابن زاوية صوفية، طبعته البادية بطابعها في الوفاء والصدق وأضفت عليه سيرة أبيه الصوفية: الطهر وصفاء الروح والتشبث القوي بالدين¹⁰⁸.

¹⁰² . الإلغيات، ج2 ص 189، وبهذه الأبيات قدم الشاعر صورته التي استهل بها كتابه " سوس العالمية"، الذي يعتبر أول مؤلف طبعه، كما نقشت على

رخامة قبره بمقبرة الشهداء بالرباط.

¹⁰³ . الراقي: المتمكن في عمله.

¹⁰⁴ . معتقل الصحراء، ج 1 ص 34.

¹⁰⁵ . الملتحد: الملتجأ.

¹⁰⁶ . جمع غدة بالضم؛ وهي العقدة الصلبة في الجسم ليست بلحم ولا شحم ولا عظم، وظيفتها إفراز سوائل تلقي الدم، وتخفف وظائف أجهزة الجسم.

¹⁰⁷ . معتقل الصحراء، ج 1 ص 38.

¹⁰⁸ . أحمد السليمانى، رضى الله محمد المختار السوسى من الزاوية إلى السلفية، مجلة الربيع، عدد1، ربيع 2015- ص 139.

رأى انتشار ظاهرة تقليد الأوربيين في مشيتهم وفي طريقة تخاطبهم باستعمال إشارات وحركات كهز الكتفين وقلب الشفتين تعبيراً عن استنكارهم لشيء أو رفضه فلم يعجبه ذلك ورأى فيه تقليداً مزيفاً واستعماراً للأخلاق الأصلية التي يجب المحافظة عليها لأنها تعبر عن الشخصية الحقيقية للوطن:

بقلب الشفاه وهز الكتف تكون إجابة من يعترف

فأين حياء الأديب إذا بأغلاط ما قد جنى يعترف

ألا قبح الله غربهم وما كان من خلقه قد عرف

امن يستحب التفرنج قد درى بيننا كيف أكل الكتف

من استعمرت منه أخلاقه فأنى إذا لمته تنتصف

ومن عظم الغرب في عينه فمن خلق أجداده قد صرف¹⁰⁹

وخلاصة القول في هذا النوع من الشعر الذي أوردت هنا أمثلة منه أنه يواكب حياة الشاعر المليئة بالكفاح من أجل تحقيق مجتمع إسلامي متكامل يساير الحياة العصرية في جانبها الإيجابي ويأخذ منها بنصيب ودون أن يخل بمقومات الشخصية الوطنية المبنية أساساً على مبادئ الدين الإسلامي الصحيح وهو في مواقفه هذه متضامن مع نخبة من الوطنيين المصلحين الذي حملوا لواء هذه الحركة في مختلف أنحاء الوطن لأن الحركة الوطنية في بداية تكوينها كانت تركز أساساً على الرغم من قيمة المجتمع دينياً وخلقياً كمرحلة أولى نحو الإصلاح الأشمل¹¹⁰.

الفرع السادس موضوعات أخرى

إضافة إلى ما مر نجد الشاعر قد تطرق إلى موضوعات أخرى مما كثر تداوله عند الشعراء التقليديين لكن في حدود جد ضيقة مما جعلني لا أرى ضرورة تناولها في فروع مستقلة لذلك سأقتصر على استعراضها مجملة في هذا الفرع وهذه الموضوعات هي: الرثاء، المدح، الغزل، التهكم، الفخر.

1. الرثاء: يصعب تحديد الأسباب الحقيقية لضعف هذا الموضوع في شعر محمد المختار خاصة وأننا رأينا الإخوانيات تغطي ثلث شعره وربما يرجع إلى طبيعة المرح والتفاؤل الغالبة عليه، وقد يمدح ماجداً فيجيد ثم يرثيه فلا يجيد.

¹⁰⁹ . معتقل الصحراء، ج 1 ص 143.

¹¹⁰ . محمد المختار السوسي ص 385.

وأقتصر في هذا الموضوع على إيراد قصيدة يمكن أن نجد فيها شيئا من جودة الصياغة وصدق العاطفة؛ وهي قصيدة في رثاء أمه¹¹¹ المتوفاة سنة (1342هـ/1923م) وهو آنذاك طالب بمراكش.

وبعد أن يصف حالته وهو يستقبل خبر وفاة أمه موضحا ما كانت توليه إياه من الرعاية والعطف اللذين جعلتا مصابه هذا خسارة لن تعوض بما تركته في حياته من فراغ لن يسده أحد غيرها بعد ذلك يختم مرثيته بأخذه الأبيات التي تنطق كل عبارة فيها بما يشعر به من ألم ولوعة إذ بموتها فقد أما حنونا كانت توليه بفيض عطفها وشفقتها وعنايتها فتبلغ به الحسرة أشدها لأنه لم يكن قادرا على فدائها بروحه لأن حياته بدونها لم يبق لها أي طعم من الذي سيعوضه عن عطفها منذ الآن؟ ومن الذي سيشجعه ويسانده في سبيل طلب العلم بعدها؟

أمي وما أمي فقدت بفقدها	عظما تجلاني ¹¹² به شفقاتها
أمي وما أمي فقدت بموتها	من كان لي كل النعيم حياتها
يا ليت من يموت فداءها	كيلا يجر عني السموم مماتها
من ذا يقابلني برحمة مثلها	وهي التي ينهل لي رحمتها
من ذا يشجع للمعالي همتي	وإن اعتلت وتطاوت هاماتها
آه على أمي الشفوق فليتني	جاءت نعاتي حين جاء نعاتها ¹¹³

2. المدح: المدح الذي نعينه هنا هو المدح السياسي الذي عرف ازدهارا في الشعر العربي قديمه وحديثه والذي يصدر عن الشعراء لأسباب شتى قد تكون وطنية وقد تكون غير ذلك فماذا نجد في مدحه السياسي؟.

لا يتجاوز هذا النوع من الشعر أربع قصائد:

أ. الأولى: في مدح جلالة الملك محمد الخامس رحمه الله؛ قالها على لسان عبد القادر العربي السباعي¹¹⁴ الذي كتب إلى الشاعر في الليلة التي سيصبح فيها الملك في بلدهم ليستحثه أن يقول قصيدة على لسانه¹¹⁵ فأرسل إليه الشاعر هذه القصيدة وهي في ست وعشرين بيتا مطلعها:

لمن موكب من هالته العز يشرق وجند كأسراب الدبا يتدفق

¹¹¹ . ترجم لها في كتابه المعسول، ج 3 ص 39 . 56.

¹¹² . تجل الشيء أخذ جلّه، وجلاله أي معظمه، لسان العرب، مادة: جل.

¹¹³ . المعسول ج3 ص 54 . 55.

¹¹⁴ . أحد علماء أولاد أبو السباع بنواحي شيشاوة، وأحد أساتذة الشاعر، له ترجمة في المعسول ج 15 ص 284.

¹¹⁵ . المعسول ج 15 ص 288.

وبعد هذه المقدمة "الخيالية" التي يصف جيشا مغربيا عرمرما لا وجود له في ذلك الحين-أي في سنة 1937م - يضيف بأن هذا الجيش يقوده ملك عظيم سليل ملوك عظام يفوق "الشاه" مهابة ومجدا مشيرا إلى ما يعلقه عليه الشعب من آمال خاصة وأنه يتحلى بخصال تؤهله لذلك: سداد رأي ولطافة أخلاق في صرامة وهمة تزعزعان الجبال الشامخة:

ملك له تعنو الملوك مهابة وأين من الشاه المتوج بيدق
ترعرع من حجر الجلالة يافعا فأصبح وهو بالجلال مطوق
يرى الشعب منه أي شهم يقوده إلى الفوز منه أي ملك مفوق
صرامة عزم لا تفل وهمة تزعزع أطواد الجبال وتفلق¹¹⁶

ب . والقصيدة الثانية يمدح فيها الخليفة السلطاني على مدينة تنزيت الأمير مولاي الحسن بن يوسف.

ج . وأما الثالثة فقد ألقاها أمام الملك عبد العزيز آل سعود ملك العربية السعودية حينما أدى الشاعر فريضة الحج عضوا في الوفد الرسمي المغربي لتلك السنة.

د . والقصيدة الرابعة قالها الشاعر في تونس في شهر جمادى الثانية 1367هـ /أبريل 1948 م حينما زار هذا القطر عضوا في وفد المغرب إلى ندوة الحرمين الشريفين التي انعقدت وقتئذ في العاصمة التونسية.

3 . الغزل: من المفروض أن يقل شعر الغزل لدى شاعر كمحمد المختار السوسي الذي يعتبر نفسه مربيا ومرشدا وموجها ومكافحا، والذي يحرص دائما على أن ينتمي إلى العلماء أكثر مما يرغب في الانتماء إلى الأنبياء، وخاصة الشعراء منهم، وهو حينما يتعاطى الشعر فلكي يتوصل به إلى تحقيق رسالته تلك، باذلا في كل ذلك جهده، رغم أنه خلق للأدب أكثر مما كان مهما للعلم¹¹⁷.

لهذا السبب كان شعره يخلو من هذا الغرض الذي شغل حيزا كبيرا في الشعر العربي قديما وحديثا. وإذا تأملنا ما أنشده الشاعر في هذا الموضوع، فإننا نجده يرجع في معظمه إلى أول عهده بالشعر وهو حينئذ شاب يافع لم يصل بعد إلى مرحلة كافية من النضج الفكري وحتى الجسمي كما أنه كان لا يزال -وقتئذ- يعاني من مخلفات فترة المراهقة بما يعتريها من نزوات عاطفية هشة في معظم الأحيان، سرعان ما تتبدد مع التقدم في السن والتعرض لعدد من التجارب التي تكون الإنسان تكوينا جديا يجعله يتعامل مع الحياة تعاملًا حقيقيا.

¹¹⁶ . المعسول ج 15 ص 288.

¹¹⁷ . وفي قرصه المبكر للشعر ما يؤيد هذا فضلا عن مؤلفاته التي تعطي أكثر من دليل على ذلك.

و"غزليات" الشاعر لهذه الفترة لا تعدو أن تكون في معظمها أبياتاً محدودة اقتضى موقف معين أن يعبر بها عن أحاسيس عابرة كقوله مخاطباً أحد زملائه¹¹⁸ في "تانكرت" بإيفران الأطلس الصغير، وهما في طريقهما إلى يهودية وضعا عندها ثوباً لتخيطه لهما:

يقول الشاعر: "وكننت حينها حديث عهد بحفظ أبيات لابن سكرة الهاشمي أولها:

ورد الخدود وورد الروض قد جمعا ***

فقلت له ونحن في الطريق:

عرج بنا إلى ديار اليهود لعلنا نجني ورد الخدود

فننتشي برشف¹¹⁹ مسك اللمى من حر نار الوجد ذات الوقود¹²⁰

فوقفنا أمام فتاة وضيئة منهن "اليهوديات" وبيدها طاقات من الورد، فناولت كل واحد منا وردة، فبادرت صاحبي بهذا الشطر، من غير أن أنسبه لابن سكرة، ومن غير أن يسمعه قبل:

ورد الخدود وورد الروض قد جمعا ***

فخال الشطر لي، فأجازه بديهة:

هذا أبيع لنا، وذلك قد منعا. *****

فكدت أجن استحساناً لما أتى به ثم أخبرته أنه لفلان فقال ما كنت أظنه إلا لك، فمن هنا تعرف هذا الأديب الذي هو اليوم فذ في كل العلوم التي قرأها مع تمكنه من الآداب القديمة تمكناً تاماً ويا ليت لي مثل حظه¹²¹. والبيتان الآتيان قالهما الشاعر لما كان طالباً بالرباط وفيهما جمال في العبارة وروعة في التصوير:

وغزال من الرباط أغنا مر في شارع القناصل عنا

يتهادى كخيزران رقيق صافحته أيدي الصبا فتثنى¹²²

¹¹⁸. وهو الأديب الحسن الكوسالي.

¹¹⁹. الرشف: المص، والرشيف تناول الماء بالشفقين. لسان العرب، مادة: رشف.

¹²⁰. المعسول ج 11 ص 76.

¹²¹. زهرة الآس في فضائل العباس ج 2 ص 739. 740، أنا والأدب لمحمد المختار السوسي، إعداد عبد الله درقاوي ذ جامعتي بمرکز تكوين المفتشين التعليم بالرباط، وهي محاضرة ألقاها على ثلة من أدباء مراكش الحمراء في مجلس خاص، تقع في 16 ص بخط المؤلف المغربي الأصل.

¹²². رسالة المغرب: مجلة نصف شهرية كانت تصدر بالرباط السنة 8، عدد 26/ 1949، ص 167.

ويمكن القول إن حرص الشاعر على إضفاء رداء الوقار عليه هو الذي حال دون إكثاره من هذا الشعر حيث إن هذه الأبيات تثبت قدرته على أن يصل في هذا الغرض إلى مرتبة لا تقل عما بلغه في شعره الوطني أو الوضعي وقد حصل هذا لدى كثير من الشعراء العلماء¹²³.

4 . التهكم: نقصد بهذا الموضوع جملة محدودة من المقطوعات الشبيهة بشعر الهجاء إلا أن الشاعر لا يهدف بهذا الشعر إلى الهجاء بقدر ما يهدف إلى السخرية والتهكم على الذين يعينهم في شعره هذا. ومنه هذه القصيدة التي يقول فيها: "خاطبت متهمًا بعضهم ممن يكون على التدخين، مع كون غالب المعتقلين صاروا ينقطعون عنه، قلت ذلك بديهة"¹²⁴:

يا من يدخن مره دخن أمامي ألف مره
دخن ودخن لا تبا ل وأعلن التدخين جهره
إن الدخان وأن تط ول لم يحطك قيد شعره
دخن دخن لا تخا لف من أخيك اليوم أمره

5 . الفخر: شعر محمد المختار السوسي خال من هذا النوع، وذلك لأسباب دينية ونفسية، فالإسلام ينهى عن التفاخر والتكبر ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾¹²⁵ والشاعر كما رأينا شديد التمسك بالتحاليم الدينية، حريص على الدفاع عن الإسلام، إضافة إلى ما جبل عليه من التواضع الشديد، والتعاطف والتالف، والتسامح في معاملته وعلاقاته بالآخرين.

نتيجة لذلك لم أقف في شعره إلا على قطعة من خمسة أبيات يمكن اعتبارها أبياتا فخرية صدرت عنه حسب تعبيره " في موضع يقتضي الافتخار وأستغفر الله من ذلك"¹²⁶، وكان ذلك سنة 1356هـ / 1938م حينما كان الشاعر منفيا إلى "إلغ" يقول فيها:

من كان يرضي مفخرا بجدوده ويدلي بهم للفخر في كل مشهد
فإني وإن كانت أصولي أماجدا سراة كراما سيدا إثر سيد
سأدلي إذا حق الفخار بسؤدد طريف كما تجنيه من غصنه يدي
فلو شئت أن أنسى تليدي لكنت من طرائق مجدي وحدها خير أمجد

¹²³ . محمد المختار السوسي ص 405 . 408.

¹²⁴ . معتقل الصحراء ج 1 ص 139.

¹²⁵ . سورة النساء الآية 36.

¹²⁶ . الإلغيات ج 2 ص 61

ولكني من ليس يغمط أصله وإن كنت أطويه إذا الناس شهدي¹²⁷

خاتمة:

إن هذا الجهد الذي بدله المختار السوسي في خدمة الدين، وعلى الصورة الموصوفة قبل أهله لاحتلال مكانة مرموقة في تاريخ الثقافة العربية الإسلامية بالمغرب، وجعلته نموذجا صالحا للاقتداء به وحذو حذوه، واستخلاص التجارب والعبر والدروس في العمل الجاد والهادف فاستحق بذلك التكريم والخلود.

يقول المختار السوسي: " لغة العرب هي خير لغة أخرجت للناس، فالحمد لله الذي هدانا حتى صرنا . نحن أبناء إيليج العجم . نذوق حلاوتها، ونستشف أدبها، حتى لنعد أنفسنا من أبناء يعرب، وإن لم نكن إلا أبناء أمازيغ، بذوقه وبما يستحليه، لا بما رضعه من ثدي أمهاته ... " (128).

ورغم هذا فإن المختار السوسي لم يحظ لحد الآن سوى بأبحاث موجزة، ومقالات مقتضبة معدودة نشرت في بعض المجلات، أو بإشارات في الكتب القليلة التي تناولت الشعر المغربي الحديث، أما على صعيد الأبحاث الجامعية فلك تتناوله إلا أبحاث قليلة لنيل الإجازة في الأدب العربي أو في التاريخ، وهي في معظمها لا تتعدى إنجاز " عروض " حول مؤلفاته، كما لا أنسى ندوتين نظمتهما حوله: الأولى بمدينة تيزنيت خلال يومي 3 و 4 يونيو 1982 من قبل فرع رابطة علماء المغرب، والثانية نظمها اتحاد كتاب المغرب والمجلس البلدي لمدينة أكادير أيام 21 و 22 و 23 دجنبر 1984.

وقد زخر شعره بقصائد الإصلاح والتوجيه والنضال، إضافة إلى شعر الإخوانيات الذي شغل حيزا كبيرا من هذا الشعر وذلك لنفس الأهداف الممثلة في رغبة الشاعر لجعل قصائده الإخوانية أداة تأثير في الآخرين بفكره وأرائه، أو وسيلة الاعتراف بالجميل لمن يستحقه عند شيوخه وأصدقائه.

أما من حيث الخصائص فقد حرص الشاعر على الوفاء للاتجاه التقليدي، متخذا موقف التحفظ من سائر الحركات التجديدية التي عاصرها والتي لقيت صدى ملموسا لدى بعض شعراء جيله وعلى رأسهم علال الفاسي الذي أعطى على سبيل المثال محاولات مبكرة في الشعر الحر (129).

ووقاؤه للاتجاه التقليدي ناتج . فيما يبدو والله أعلم . عن ظروف تكوينه الثقافي والأدبي من جهة، وعن قناعاته الفكرية من جهة أخرى، تلك القناعات المرتكزة أساسا على اتجاه متميز في العقيدة: الاتجاه السلفي

¹²⁷. نفس المرج السابق.

¹²⁸ - السوسي، المختار، المعسول، ج 1 ص 13، وخلال جزوة، ج 2 ص 209.

¹²⁹ - مثل قصيدة: " رأيت الله " وهي مؤرخة بتاريخ 14 يونيو 1942، في: المختار من شعر علال الفاسي، ديوان علال الفاسي ج 1 ص 35.

ممزوجاً بنفحات صوفية . وفي السلوك: التشبث بالأخلاق الإسلامية المستوحاة من تعاليم الكتاب والسنة، وفي السياسة: مناهضة كل ما هو أجنبي دخيل لما يرمز إليه من وجود استعماري تجب مقاومته بما في ذلك التيارات الأدبية الوافدة من الغرب والتي لقيت تجاوباً لدى فئات كثيرة من الأدباء العرب في تلك الفترة.

لائحة المصادر والمراجع:

- . الأدب العربي في المغرب الأقصى، تأليف الأستاذ القباج، ج2 الطبعة الأولى، 1929، الرباط.
- . الأدب المغربي من خلال ظواهره وقضاياه، الدكتور عباس الجبراري، ج1، الطبعة الأولى، 1979، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء.
- . الإلغيات، المختار السوسي، طبعة 1963م، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء.
- . أعلام الفكر المعاصر، لعبد الله الجبراري.
- . أعلام المغرب، المختار السوسي، مصطفى الشليح، أحمد السليمان، بوشتي السكيوي، مؤسسة وانا، مطبعة إيديال، 1996م.
- . جريدة رسالة المغرب، السنة 9، العدد 50، فبراير 1950.
- . خلال جزولة، المختار السوسي، الطبعة الأولى، المطبعة المهدية، تطوان المغرب.
- . الرسالتان البونعمانية والشوقية، للمختار السوسي.
- . رسالة المغرب، مجلة نصف شهرية، كانت تصدر بالرباط، السنة 8، العدد: 26، 1949م.
- . زهرة الآس في فضائل العباس.
- . أنا والأدب، للمختار السوسي، إعداد عبد الله درقاوي، أستاذ جامعي بمركز تكوين مفتشي لتعليم بالرباط، وهي محاضرة ألقاها على ثلة من أدباء مراكش الحمراء في مجلس خاص، تقع بخط المؤلف المغرب الأصيل.
- . مجلة حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، العدد 2، 1958، جامعة الحسن الثاني المحمدية.
- . مجلة الربيع، العدد الأول، ربيع 2015، يصدرها مركز محمد بنسعيد آيت يدر للأبحاث والدراسات.
- . محمد المختار السوسي دراسة لشخصيته وشعره، محمد خليل، الطبعة الأولى، 1985م، مؤسسة لطباعة والنشر الدار البيضاء.
- . المختار السوسي الذاكرة المستعادة، أعمال الندوة التي نظمها اتحاد كتاب المغرب بالتعاون مع المجلس البلدي لمدينة أكادير أيام 12 . 22 . 23 دجنبر 1984م.

- . معتقل الصحراء، محمد المختار السوسي، طبعة 1982م، مطبعة الساحل الرباط.
- . المعسول، المختار السوسي، طبعة 1961م، مطبعة النجاح، الدار البيضاء.